صفاء العبد

حقيبة سفر



حقيبة سفر

حقيبة سفر

صفاء العبد

الطبعة العربية الأولى / ٢٠٠٦

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقـافة والفنـون

قسـم الدراسـات والبحـوث

ص . ب : ٣٣٣٢ الدوحة

فاكس : ٤٨٨٣٧٩٤ (٩٧٤٠)

الغلاف: عمـاد برقـــاوي

الطباعة: مطابع رينودا الحديثة

حقيبة سفر

صفاء العبد

رحلات

الإهداء

- إلى أبي الذي كان يُقلقه سفري..
- إلى جدي الذي حرص على أن يزرع الثقة في نفسي وأنا صغير..



مقدمة

كان ذلك قبل نحو ربع قرن، عندما مر أمامي في إحدى مقاهي القاهرة بمصر رجل يحمل حقيبة سوداء رسم على جانبها باطن كف باللون الأبيض وبخطوط متداخلة.

لم يكن الأمر ليثيرني أو يستحوذ على اهتمامي إطلاقاً ، فالصورة تكاد تتكرر في العديد من المدن العربية ، وأمثال هذا الرجل يمكن أن تجدهم في دمشق أو بغداد أو عمان أو بيروت أو الرباط أو أية مدينة عربية أخرى مثلما تجدهم أيضاً في مدن غير عربية مثل باريس التي تعج بقراء الكف و بطريقة تدعو لشيء من الدهشة حقاً.

أقول، لم يكن الأمر ليثير اهتمامي أبداً، غير أن النادل في تلك المقهى هو الذي لفت نظري إلى أهمية ذلك الرجل عندما قال إن شخصيات عربية مهمة تحضر إلى القاهرة سنوياً لتلتقي هذا الرجل خصيصاً من أجل أن يقوم بقراءة طالعها.. !!

ولأنني كنت مشغولاً يومها بالتقديم لإحدى الجامعات المصرية وجدتها فرصة لأرى ما إذا كان هذا الرجل يتكهن بشيء يخص مستقبلي الدراسي، أو ما يمكن أن تنتهي إليه محاولاتي للحصول على مقعد دراسي في إحدى الجامعات تلك .

استدعيت الرجل ، فجلس إلى جانبي واتفقنا على المبلغ ثم راح يتطلع في باطن كفي اليمنى وكأنه يبحث عن مفردات مكتوبة .

فاجأني بأمر لم أتوقعه أبداً ، قال لي بالحرف الواحد "إنك ترغب في أن تدرس هنا في القاهرة"، ثم أردف يقول ... "ستحصل على ما تريد لكنك تتخلى عنه بإرادتك لتعود إلى بلدك" .

كنت مندهشاً من هذا الذي يقوله ، إذ كيف عرف أنني هنا أبحث عن مقعد دراسي ، ثم كيف لي أن أتخلى عنه إذا ما حصلت عليه فعلاً؟!

ويواصل الرجل حديثه المقتضب بطريقة بدا فيها وكأنه يختار كلمات مختصرة جداً للتعبير عن قراءاته .

ألمحَ لي بأمور خاصة جداً ، ذكر لي مثلاً عدد إخوتي وأخواتي وكان دقيقاً ، وأشار إلى أنني سأعود إلى بلدي وأكمل دراستي الجامعية هناك في قسم يؤهلني لزيارة العديد من دول العالم .

وقال لي أيضاً بأنني سأتزوج من امرأة تبعدني عنها الآن - في حينها - آلاف الأميال ، ونصحني بأن لا أضيع الوقت والمال مع الأطباء وأن ألجأ فوراً إلى حمام البخار فقط لأعالج آلاماً في ظهري ستنتابني في أواخر العقد الرابع من عمري..!!

المهم أن كل ما قاله قد حدث بالضبط ، فقد غادرت مصر فعلاً بعد أيام رغم قبولي في جامعة القاهرة حيث تم قبولي أيضاً في إحدى جامعات بلدي بكلية العلوم السياسية التي تؤهلني للعمل في السلك الدبلوماسي ، وبعد سنوات تزوجت من فتاة كانت ترافق والدها الذي كان يعمل سفيراً لبلده في دولة فيتنام التي تبعد عنا آلاف الأميال ، وأيضاً فقد بدأت أعاني من آلام في الظهر وكان حمام البخار هو علاجي الوحيد..!!

نعم ، ذلك ما كان قد حصل ، أما كيف ، فهذا ما لا أدركه ولا أعرف له تفسيراً يمكن أن يقبله المنطق ، وفي الواقع فإن الأمر كله يبدو وكأنه أقرب إلى لغز يصعب فك طلاسمه خصوصا وأنني لست ممن يؤمنون بالخرافات أو الخزعبلات التي أرى أن قراءة الطالع جزء لا يتجزأ منها.

لست هنا بصدد الحكم على مدى الصدق أو الكذب ، الدقة أو المبالغة ، الواقعية أو الخيالية ، المنطق أو اللامنطق في قراءات الطالع هذه ، بل فقط أردت أن أجعلها مدخلاً في مقدمتي هذه عن كتاب هو في الواقع حصيلة رحلات متعددة طفت فيها الشرق والغرب ، الشمال والجنوب في بلدان مختلفة كان قارئ الكف قد تنبأ لي بزيارتها منذ ذلك التاريخ .

وإذا كان قارئ الكف هذا قد توقع أن أزور البلدان تلك بحكم العمل الدبلوماسي فإن الأقدار شاءت أن تكذبه "كذب المنجمون ولو صدقوا" .

ففي الواقع زرت العديد من البلدان ولكن في مهمات لا علاقة لها بالدبلوماسية أبداً وإنما بعمل آخر كان يتطلب مني أن أتنقل هنا أو هناك وبطريقة أتاحت لي فرصاً أوسع لمشاهدة عدد أكبر من البلدان التي يمكن أن يزورها الموظف في السلك الدبلوماسي .

زرت البلاد العربية كلها ، وتنقلت بين معظم البلدان الآسيوية ، وكنت هناك في أوروبا أطوف بلدانها شرقاً وغرباً وعبرت المحيط لأزور بلدان أخرى وراء البحار .

كنت أتمنى أن أمتلك رقماً محدداً لعدد الكيلومترات أو الأميال التي قطعتها في رحلاتي تلك ، لكنني أستطيع أن أقول إنني أمضيت نحو (٣٥٠) ساعة في السماء على متن الطائرات التي كانت تنقلني من بلد إلى آخر لأخرج بالتالي بهذه الحصيلة من المشاهدات والانطباعات والمواقف التي صادفتني فيها وهي في الواقع ليست الحصيلة كلها وإنما البعض منها، والبعض الآخر يمكن أن أتناوله في جزء آخر من هذا الكتاب بعد حين .

أقول ، كان أمراً صعباً جداً أن أدون كل ذلك ، فالموضوع يرتبط بأحداث ومشاهدات وانطباعات متباينة ومتباعدة زمنياً لا سيما وأنني كنت أستخدم الذاكرة فيها أغلب الأحيان دون الاعتماد فقط على التدوين المبرمج للأحداث تلك .

عالم السفر والترحال هذا عالم مليء دائماً بالجديد والغريب، والجديد والغريب هذا لا يمكن أبداً أن يأخذ حقه من الوصف الكامل عبر سطور مقتضبة من الكلمات خصوصاً وإنني اخترت أسلوب عدم الإطالة تجنباً لأي شكل من الملل الذي يمكن أن يصيب القارئ ، وفي العموم فإن التدوين يبقى مهماً لإيصال كل ذلك أو البعض منه وبالتالي محاولة جعل القارئ يتعايش معها عبر كلمات تهدف قبل كل شيء إلى التعريف أو التوضيح أو إيصال المعلومة بشكل صحيح .

هي محاولة إذاً لطرق أبواب ذلك الأدب العظيم الذي يسمى أدب الرحلات ، محاولة لإسهامة متواضعة في وضع لبنة في بنيانه العظيم الذي سيبقى بحاجة دائماً لما هو أكثر وأكثر في مكتبتنا العربية التي يعوزها الكثير من مثل هذه الكتابات التي تجمع بين المتعة والنكتة والمعرفة والاطلاع على مشاهدات قد لا تراها العيون وإنما يقرأها العقل ويتصورها الإلهام من خلال سطور نتمنى أن تسعدكم وتضيف إليكم ما هو جديد، والسلام .

المؤلف

الهـــند ...

أرض العجائب والغرائب..!!



بعد قليل سنهبط في مطار نيودلهي ، هكذا أخبرنا كابتن الطائرة التي بدت و كأنها تتراقص فوق أديم قاتم الخضرة ، فنيودلهي الواسعة والكبيرة كانت تتراءى لنا من خلال نوافذ تلك الطائرة وكأنها لوحة رُسمت بريشة فنان ماهر ومحترف .

ولا أخفيكم أن الصورة تلك جعلتنا مشدودين أكثر إلى تلك اللحظة التي نضع فيها أقدامنا فوق تلك الأرض التي حلمنا بها كثيراً وسمعنا عنها أكثر وقرأنا حولها الكثير الكثير .

إنها الهند إذاً ، أرض المهاتما غاندي والأديان واللغات التي لا تُعد ولا تُحصى ، أرض الخصوبة والإنجاب الذي ليس له حدود ، أرض المليار نسمة والأغنياء والفقراء على حد سواء ، أرض العجائب والغرائب والطيور التي تأكل جثث الموتى والأنهار التي تبلع رماد الجثث المحروقة ، أرض الفيلة والحيوانات التي تملأ الأماكن والأبقار التي تسرح وتمرح وتتمختر في الشوارع والأزقة والحدائق والمحلات دون رادع أو مانع ، أرض الثعابين التي ترقص على مزمار الحاوي والقرود التي تنط فوق الأشجار وتتدلى من أغصانها ، أرض الأصنام التي ما زالت تعبد هناك بطرائق تثير الدهشة ، أرض الموتى الأحياء أو الأحياء الموتى الذين يملأون الأرصفة ويفترشونها بلا فواصل أو أفرشة أو بقايا قطع قماش ، أرض الأمطار التي لا تتوقف وإن توقفت فلكي تعاود الهطول بكميات أكبر ، أرض السواد الأعظم من البشر الذين يتفننون باصطناع طرق الاستجداء والتوسل ، أرض الأجسام المشوقة بفعل الجوع أحياناً، والعيون المحمرة بفعل المرض والوجوه الشاحبة بفعل الحشيش والكوكايين والأعشاب التي تصيب الأبدان بالخدر

والخمول والكسل ، أرض السرر المكشوفة والظهور العارية والساري الذي يلف الجسم من الأعلى ومن أسفل الردفين ، أرض المهراجات والأساطير والقصور التي لا تنتهي ، وأيضاً أرض الجمال الأخاذ الذي يلف العقول ويدهش الأبصار .

نعم ، هي الهند وتلكم هي عاصمتها دلهي ، وفي دلهي أو مطارها على وجه التحديد يصيبك الذهول وأنت تنظر في أول مشهد لك إلى ذلك الرجل الذي ارتدى بذلة " السموكن " وربطة العنق الحريرية لكنه حافي القدمين ...!!

وعندما تسأل يأتيك الجواب سريعاً : إنه من المتصوفين في الديانة الهندوسية ، فهو يرفض ارتداء الحذاء لأنه يعتقد أن الحشرة - أية حشرة - ربما لا تموت إذا ما وقعت ، بفعل قدرها ، تحت قدمه الحافية لكنها ستموت حتماً إذا ما وقعت تحت قدم ينتعل حذاء .. !!

- تساءلت ...

وماذا لو سُحقت تلك الحشرة ، ما الضير في ذلك ، ألسنا نحارب الحشرات بشتى الوسائل ونستخدم في سبيل ذلك كل مبيد ممكن..؟!

ضحك صاحبي كثيراً وقال : إياك أن يسمعك أحد من أبناء هذه الطائفة في الهند ، فقد يكون الرد عنيفاً أو غير متوقع لأنهم باختصار يؤمنون بأن الحشرة هذه ربما كانت في يوم ما بشراً مثله مثلك ، وربما سيكون مصيرك يوماً حشرة مثلها ..!! هكذا هي معتقداتهم ، فالإنسان قد ينسخ بعد الموت في صورة حشرة أو حيوان أو نبات ، إنها الروح التي تنتقل من جسد إلى آخر ومن جسم إلى غيره.. !!

المهم أن صاحبنا حافي القدمين هذا خرج من صالة الانتظار باتجاه الطائرة وليس من أحد غيرنا بالطبع قد نظر مجرد النظر إليه، إنه منظر مألوف هناك فربما تكون تلك "العمامة" الكبيرة التي تغطي رأسه ولحيته الكثة المتدلية على صدره كافية للتعويض عن ارتداء الحذاء الذي يقتل حشرة كانت في الماضي إنسانا، من يدري..؟!

طيور تأكل الموتى..!!

خرجنا من مطار دلهي ، وكان على كل من يرتدي نظارات، طبية كانت أم شمسية ، أن يخلعها، فالرطوبة عالية جداً إلى الحد الذي يجعل النظر بواسطة النظارات أمراً مستحيلاً بسبب كثافة الضباب الذي سيغطي العدسات .

ثم اتجهنا صوب السيارة التي ستقلنا إلى أقرب فندق ، وقد يكون منظراً غير مألوف أبداً أن ترى تلك البقع الحمراء التي تشبه الدم وهي تغطي الأرض ، ولعلك لا تحتاج إلى أي استفسار لمجرد أن تنتبه قليلاَ إلى تلك الأفواه التي تمضغ " اللبان " ثم تبصقه على الأرض بلون أحمر قاتم .

وبعد حين عرفنا أن اللبان هذا ما هو إلا كتلة من الأعشاب يصنعون منها " لفة " ثم يمضغونها على طريقة اللبان العادي ومن ثم يبصقونها بعد أن تكون قد فعلت فيهم فعلتها وأصابتهم بشيء من الخدر والخمول..!

والغريب هنا هو أن " اللبان " هذا أغلى ثمناً من أنواع " اللبان " الأخرى التي نعرفها ، والأغرب أن عامل المطار أو بائع الحلوى في الشارع والموظف الذي يقدم لك الخدمات والرجل الوقور الذي يشبه مسؤولاً مهماً، جميعهم يمضغون هذا اللبان الذي يباع على الأرصفة .

إنها إحدى العادات المتوارثة هناك شأنها شأن عادات غيرها في مجتمعات أخرى مثل تناول " القات " في اليمن أو تدخين الشيشة في العديد من البلدان العربية .. عادات قد تختلف بشأنها الآراء أو الانطباعات لكنها في جميع الأحوال لا تخرج عن كونها قيماً أو موروثات اجتماعية في هذا البلد أو ذاك .

ربما ستصاب بالإحباط أولاً عند المطار وخارجه، فالمنظر العام يوحي وكأنك في مدينة متواضعة وتعاني البؤس، فالوجوه شاحبة والأجسام نحيلة والابتسامات تبدو وكأنها مريضة، وبعض الروائح وبينها العطور الصارخة تزكم الأنوف..!

والآن فقط عرفت لماذا كانت "المضيفات" في الطائرة التي أقلتنا من دبي إلى دلهي يحرصن بين حين وآخر على رش المعطرات داخل الطائرة التي كان معظم ركابها من الهنود طبعاً، وأكثرهم من العاملين أو العاملات في ميادين الخدمة في البيوت والأسواق الخليجية .

فالعطور الهندية المستخدمة كانت صارخة جداً وقد لا يتقبلها غير الشخص الذي يستخدمها نفسه، وعدا العطور الصارخة هذه كانت شوارع دلهي تفوح بروائح أخرى من أنواع لا أعرف منابعها أو أصلها..!

وبعد أن كنت أفخر أو أتباهى بحاسة شمي صرت هنا أضجر منها، فقد عذبتني كثيراً بعد أن صرت أشم روائح كثيرة قد لا يشمها غيري، ثم توهمت بروائح أخرى لا وجود لها.. المهم أن الروائح تلك بدت وكأنها تنبعث من الأرض ، فأنت تشمها شئت أم أبيت..!

وبالكاد عرفت أن لهذه الروائح مصادر أخرى غير العطور الصارخة التي يستخدمونها ، إنها تنبع من بعض الأعشاب التي تزرع في الهند ، وتنبع من الأجواء الرطبة التي تغطي المكان أينما ذهبت ، وتنبع وتتصاعد من أنواع البخور التي لها أول وليس لها آخر ، وأيضاً فإنها تنبع من بعض الأجسام الحية ومن أخرى ميتة تترك في العراء دون أن تدفن بسبب بعض المعتقدات الدينية هناك لكي تصبح غذاءً

لبعض الطيور التي تأكل منها ثم تطير بقطع أخرى .. !

أما أنا وأنفي الذي يشفط بلا رحمة فإلى بئس المصير، فتلكم هي الهند ، تعجبكم أم لم تعجبكم، فذلك أمر لا يعنيهم لا من بعيد ولا من قريب، المهم أن الملايين من البشر يتمنون الوصول إليها ومشاهدتها على الطبيعة ومعايشة عجائبها وغرائبها تماماً مثلما كان الأمر معي قبل أن أصل إلى دلهي الواثقة جداً من نفسها.

المهم، ركبنا السيارة، والسيارة ليست أكثر من مقاعد من الخشب الذي يأكل من جسم الراكب ، وماكينة يجلس خلف مقودها رجل نحيف لا يضحك ولا يبتسم ولا يتكلم ، و كل الذي قاله وهو يقود السيارة من المطار إلى الفندق بوسط المدينة (يادركنا) ولم أكن أعلم حينها ما الذي يعنيه بـ(يادركنا) .

كنت أعتقد أنه شتم صاحب السيارة الكبيرة الأخرى التي كادت تحطمنا ، فسائقنا كان يقود السيارة بطريقة ربما يكون لها علاقة بأي شيء إلا السياقة .. إنه كان يسير وكأنه مغمض العينين لا يرى شيئاً ولا يسمع حتى تلك الأصوات التي لا تنتهي والمنطلقة من أجهزة التنبيه في السيارات الأخرى .. !

وبالمناسبة فإن جميع السيارات أو لنقل معظمها في (دلهي) تحمل في مؤخرتها يافطة صغيرة كتب عليه*(Horn please)* ، "أي استخدم جهاز التنبيه رجاء" على العكس من كل دول العالم التي تحرم استخدام هذا الجهاز إلا في حالات الضرورة ، بل إن قوانينها تعاقب على ذلك.

وإذا ما كان الاختلاف بطرق السير ومقود السيارة ، الذي هو في جهة اليمين وليس في اليسار كما هو الحال عندنا، قد جعل راسي تدور

في البداية، فإن سائقنا وسائقي السيارات الأخرى ومستخدمي الطريق من المشاة أطاروا صوابي وجعلوني أمسك بمقعدي وأدوس بقدمي بين لحظة وأخرى متصوراً أنني أنا الذي يقود السيارة وأن حادثة الدهس أو الاصطدام ستقع لا محالة ، فلا شيء هناك اسمه نظام ، كل يسير على هواه والأسبقية للأشطر، بل الأكثر جراءة ، أما الجراءة فهي ذات معنى آخر هنا إذ يبدو الموت أو الانتحار هو الهدف عند الكثيرين ، لا بل قل إن بعضهم يسير في الشارع وكأنه يبحث عن الموت دهساً، وليذهب السائق بعد ذلك إلى جحيم السجن ليس لأنه دهس رجلاً مسكيناً فقيراً جائعاً اختار الموت وفضله على حياة تشبه الموت، بل لأنه ما زال متمسكاً بحياة لا معنى لها غير البؤس والفاقة..!

ورغم كل الذي صادفنا من عجائب السياقة والسير في الطريق المؤدية إلى الفندق ظلت كلمة السائق الوحيدة التي قالها على مدى أكثر من أربعين دقيقة (يادار كنا) تتردد في أذني أبحث عن معناها ليس بهدف تعلم اللغة الهندية بل بحثاً عن طبيعة رد فعل السائق تجاه رجل آخر كاد يودي بحياة أكثر من خمسة وعشرين شخصاً كانوا على متن السيارة .

وحالما وضعت قدمي على الأرض تنفست الصعداء وتوجهت إلى السائق الذي أتعبنا بسياقته و قُلت له (يا داركنا)، فابتسم لأول مرة وأجابني بالشكر وقال سأفعل ..!

التفت بدهشة إلى موظف السفارة الذي كان يرافقنا وقلت : ألم أشتمه، إنه يشكرني. فأجاب صاحبي: كلا، إنك لم تشتمه بل قُلت له (انتبه) وتلك كلمة ودية وتعبر عن الاهتمام، وهنا غالباً ما يقولها سائق لسائق آخر يزاحمه في الطريق .

قُلت له بتعجب : يزاحمه .. ؟!

قال : نعم..!

قُلت : بل قل يقتله ويقتل من معه ، والله يستر من الآتيات في أيامنا مع الهند وسائقيها الذين يمتلكون أعصاباً باردة لم أرَ مثلها على الإطلاق..!!

إياكم وإزعاج البقرة..!!

قال صاحبي الذي عاش طويلاً في الهند إن من الخطأ أن يحكم المرء على هذه المدينة وأهلها من بوابتها الرئيسة ويعني بها المطار والطرق المؤدية إليه أو القادمة منه..

إنه يجزم بأنني سأخرج فيما بعد بانطباعات أخرى تختلف كثيراً عن تلك التي ولدتها تلك الساعات الأول ، ولعله أراد أن يؤكد صواب ما ذهب إليه عندما دق باب غرفتي بعد أقل من ساعة من دخولنا إلى الفندق طالبا مصاحبته في نزهة قصيرة في دلهي "الحقيقية" ، على حد قوله ، وليست دلهي التي رأيتها في المطار أو قريباً منه .

حاولت الاعتذار وتأجيل الخروج لأنني كُنت متعباً حقاً ومنزعجاً قليلاً غير أنه ألح كثيراً، فخرجنا .

كان الطقس لاهباً ، والرطوبة شديدة ، والوقت ظهراً وفي عز الصيف كما يقولون ،غير أن كل ذلك تبدد سريعاً داخل السيارة الحديثة المكيفة ، ومن خلف الزجاج شاهدت البنايات الشاهقة والحدائق الجميلة والشوارع الواسعة وكأنني تركت مدينة لأدخل أخرى غيرها..!

غير أن المدينة الجميلة هذه تعج بالأبقار التي تتمختر في الشوارع وكأنها صاحبة الأمر والنهي فيها.. كان السائق يتوقف ليسمح للبقرة أن تعبر الشارع إذا ما صادفته ، ولعلكم تستغربون عندما أقول لكم إنني رأيت أحد سائقي السيارات وهو يترجل عنها "احتراماً" للبقرة التي تعترض السير في الشارع ، ضحكت كثيراً لذلك المنظر ثم سألت صاحبي :

- وماذا لو أن البقرة ارتأت أن تضطجع في الشارع .. ؟!

- قال : نعم يحدث ذلك أحياناً ..
- قُلت : وما هو رد الفعل .. ؟
- أجاب : ليس سوى الانتظار ..!
- قُلت : وإذا كان على موعد أو في مهمة مستعجلة .. ؟!
- أجاب: إما أن يرصف السيارة ويتركها أو أن يجد مخرجاً للعودة والبحث عن طريق آخر ..!
- قُلت : لعلك تبالغ في هذا الأمر.. ؟!
- أجاب: أبداً ، فقبل أيام قلائل حدث أمر قد لا تصدقه ، فقد دخلت إحدى الأبقار إلى داخل سوق مركزي كبير يعج بالمتسوقين وراحت تعدو داخل السوق لتهشم وتكسر وتثير فزع الغرباء ، غير أن أحداً لم يمسها بسوء أبداً ، بل انتظروا إلى أن تهدأ لتخرج دون أن يتدخل في ذلك أحد.. !

ثم أردف يقول: إنها الأم المقدسة ، هكذا ينظرون إليها في الهند ، إنهم يقدسونها إلى الحد الذي يعتقدون فيه أن مقدمها خير وبركة حتى في مثل هذه الحالات التي تثير فيها الأعصاب عند غيرهم؛ فالحالات هذه تثير عندهم البهجة والفرح لأنها "تبشرهم" بالنجاة والنجاح بعد امتحان الصبر والتحمل هذا..!

ثم راح صاحبي يشرح لي كيف أصبحت البقرة أماً مقدسة في الهند وكيف يعتبرونها هناك مصدراً للخصب والحياة وكيف يمتنعون عن ذبحها لأي سبب كان ، بل إن بعضهم يمتنع حتى عن تناول حليبها أو أكل منتجات ذلك الحليب رغم الجوع الذي يقتل الملايين هناك..!

وبالمناسبة فإن الدولة هي التي بادرت في الفترة الأخيرة إلى استثمار منتجات هذه الأبقار حيث بدأت باستخدام بعض القاطرات لتملأها حليبا وتوزعه مجاناً على الناس .

المهم أن أحداً لا يخدش راحة البقرة ولا يمسها بسوء ، غير أن كل تلك القدسية وتلك المكانة الرفيعة التي تحظى بها البقرة لم تمنحها القدرة على إنقاذ "فحلها" الثور المسكين الذي يهان هناك ويُضطهد أكثر من أي حيوان آخر في أي مكان غيره ، فالثور هذا منبوذ رغم كونه شقيق البقرة أو فحلها أو أباها.. ! كل ذلك لم يشفع له بل على العكس كان سبباً في إيذائه ، والسبب ربما يكون له علاقة بما نسميه بـ التفرقة العنصرية بين الذكر والأنثى، والله أعلم ..!

وقصور للموتى أيضاً.. !!

كنت مشدوداً جداً إلى حديث صاحبي، غير أنني انتبهت فجأة إلى حركة من يده كانت تشير إلى قصر فخم قائم فوق ربوة عالية قليلاً .

كان ذلك أحد القصور الفخمة لواحد من المهراجات المعروفين في الهند .. فالمهراجات هؤلاء يمتلكون من القصور والأموال والمجوهرات ما يصعب تصوره وعدّه، وعلى الرغم من أن معظم قصور المهراجات هذه قد تحولت فيما بعد إلى متاحف أو فنادق إلا أن بعضها ما زال مسكوناً من أبناء أو أحفاد أولئك المهراجات الذين قضوا نحبهم منذ زمن ، والأبناء والأحفاد هؤلاء أغنياء هم أيضاً، فهم ينفقون من تلك الأموال الطائلة التي تركها لهم آباؤهم أو أجدادهم المهراجات الذين كان بعضهم يعيش في عالم من الخيال والبذخ وكأنه يصنع الجنة فوق الأرض - على حد قول أحد الرواة - أو أنه اختار جنة الحياة بعد أن تأكد أن جنة الآخرة ليست له ولأمثاله بسبب من ظلمهم وتعسفهم وسوء أفعالهم تجاه مساكين وفقراء وجياع الهند الذين يعيشون فقراً لا يوصف أو قل إنهم يعيشون موتاً يلاصق الحياة ويرتبط بها بخيوط واهية جداً أو ربما وهمية...!!

والحديث عن المهراجات وغرائب المهراجات سيدفعك إلى مدينة اسمها "جاييور" ، و " جاييور " هذه تقع في ولاية راجاستان البعيدة عن دلهي ، أي أن عليك أن تركب الطائرة إذا ما رغبت في مشاهدتها ..

ولكي لا تنفق كل ما في جيبك في " جاييور " التي ترتفع فيها الأسعار بحكم المستوى المعيشي المرتفع لسكانها مقارنة بمدن الهند الأخرى ، لأنها باختصار هي مدينة المهراجات والأحجار الكريمة ، أقول

لكي لا تنفق ما في جيبك تعال أطلعك على شيء عن " جايبور " وبالمجان..

جايبور هذه مدينة مكتظة بالسياح الأجانب ، والسياح هؤلاء يبحثون طبعاً عن بقايا المهراجات وما تركوه من قصور وحدائق وآثار. كانت جايبور في الماضي مقسمة إلى ولايات ولكل ولاية مهراجا، ولهذا المهراجا بالطبع عدة قصور فخمة أصبح معظمها اليوم فنادق ومتاحف وربما جامعات ومعاهد.

ويحيط بهذه الولاية سور ضخم له ثماني بوابات كبيرة خصصت إحداها للمهراجات وعوائلهم فقط، وهناك بوابة خاصة للسياح فقط.

ولو سألت عن أضخم هذه القصور لقالوا لك إنه قصر المهراجا الشهير "مون سنج" الثاني ويسمى قصر "رامباج" وتعني الكلمة (حديقة الإله)، وقد تحول هذا القصر اليوم إلى فندق يحمل الاسم نفسه.

في هذا الفندق جدران مزخرفة تعلوها لوحات أثرية نادرة، وتحيط به حديقة وكأنها عالم من الخيال حيث تملأها الألوان والزهور وطيور الطاووس الملونة ، أما عن غرف هذا القصر فهي غرف سحرية فيها سقوف مزخرفة بنقوش من الذهب والفضة وفيها حمامات داخلية صنابيرها من ذهب..!

وإلى جانب هذا القصر الضخم هناك قصور أخرى كالقلاع محاطة بالأسوار التي تعلوها غرف للحراسة ، وفي الداخل سلالم تقودك إلى طابق سفلي هو عبارة عن سجن مظلم له بوابة حديدية ومقصلة ، ويستخدم السجن لمعاقبة المتمردين على المهراجات حيث أن

مثل هذه السجون كان لا بد منها لأن الثراء الفاحش هذا لا يمكن أن يدوم بأمان إلا إذا كان هناك شيء من القمع والإرهاب..!

وهناك فوق هذا السجن عدة أجنحة ، فهذا جناح للاجتماعات يبدو مثل قصر كبير تتوسطه المكاتب وفيه باحة كبيرة لها منصة يجلس فوقها المهراجا ليخطب ، وفي وسط الباحة هذه حوض للماء وزعت فيه الزهور بطريقة فيها الكثير من الذوق والجمال .

وعندما تبتعد قليلاً عن وسط المدينة تصادفك قصور أخرى يسمونها " قصور الموت " أي أنه حتى الموت له قصور عند المهراجات..!

وقد خصصت هذه القصور أو بنيت أصلاً لكي تحرق داخلها أجسام المهراجات بعد الموت طبقاً لطقوس دينية ما زالت مستمرة حتى اليوم ، وهناك قصر لحرق المهراجات من الرجال وآخر للنساء المهراجات وثالث لجاريات المهراجا من جميلات النساء .. !

وقبل أن تخرج من هذه المدينة العجيبة تطالعك بحيرة كبيرة يتوسطها قصر آخر من القصور الفخمة هذه ، إنه (قصر الماء) وقد انشئ هذا القصر من أجل غاية واحدة فقط هي أن يمارس فيه المهراجا هوايته المفضلة في صيد السمك ، وإلى جانب هذا القصر ربوة عالية بني فوقها قصر آخر عرف بـ (القصر البلوري) زرعت في سقوفه وجدرانه آلاف البلورات واللآلئ لتعكس الضوء وكأنها نجوم وكواكب، فبدت السقوف مثل سماء صناعية صافية يستمتع بها المهراجا مع جارياته دون الحاجة إلى مغادرة قصره ومشاهدة السماء على الطبيعة ..!

وحالما تنتهي من رحلتك مع عالم هذه القصور التي هي أقرب إلى الخيال يشدك منظر آخر وكأنه يهز كيانك كله ليعيدك إلى وعيك ،

إنه منظر تلك البيوت التي تحيط السور من الخارج، بيوت صنعت من الطين أو الصفيح ويتكدس فيها وحولها مئات من البشر الذين يعانون من الفاقة والجوع والتخلف.. !

ترى ما الذي يمكن أن نقوله في ذلك ، كيف يمكن لإنسان ، أي إنسان ، أن يعيش في مثل تلك القصور الباذخة ومن حوله أناس فاق فقرهم وبعد ، فالأفضل أن لا تذهب إلى (جاييور) ، ليس من أجل أموالك مثلما قُلت لك في أول هذا الكلام فقط ، بل وأيضاً من أجل مشاعرك وأحاسيسك وإنسانيتك لأنك ستتألم كثيراً بسبب هذا البون الشاسع الذي يفصل بين إنسان يعيش لنفسه ويتفنن في طرق عبثه وترفه وآخر مات في اللحظة التي ولد فيها لكنه ظل يتشبث عند هامش الحياة لينتظر موتاً جسدياً من نوع آخر .. !!

عيد هندي خاص جداً جداً ..!!

يوم وصلنا إلى الهند لاحظت أن معظم الناس ، رجالاً ونساء، يضعون عند المعصم قطعة قماش مشدودة أو خيطاً جعلوه مثل الأسورة .. تخيلت أنها محاولة من بعض الفقراء للتشبه بأولئك الأغنياء الذين يضعون في أصابعهم وأياديهم محابس وأساور من الذهب واللؤلؤ.. غير أنني انتبهت فجأة وأنا أدخل صالة ذلك الفندق الفخم ، أن مديرة ذلك الفندق التي يغطي جيدها وأصابعها الذهب كانت هي الأخرى تضع خيطاً ملفوفاً حول معصمها..!

دُهشت أولاً ، ولم أجد حينها تفسيراً لذلك الأمر ، ثم ازدادت دهشتي عندما رأيت في أحد مطاعم ذلك الفندق شاباً وسيماً بدت عليه الكثير من مظاهر الترف والغنى وهو يشد حول معصمه قطعة قماش حمراء اللون كانت تبدو بالية جداً إلى جوار ذلك السوار الذهبي في معصمه..!

وعندما صعدت إلى غرفتي وطلبت قدحاً من الشاي جاءني النادل وهو يضع قطعة قماش مماثلة حول معصمه ، فأمسكته من يده وطلبت منه تفسيراً مقنعاً لهذا الذي أراه.. ضحك بصوت مسموع خلافاً للعادة الهندية وقال : إنه العيد يا سيد، وخرج!

أي عيد ، ثم ما علاقة العيد بقطعة القماش أو الخيط هذا ، وهل للأعياد في الهند خيوط أو قطع قماش متهرئة أحياناً يرتدونها بدلاً من الثياب والملابس الجديدة كما هو الحال في كل أرجاء الأرض..؟!

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بصديقي الذي يعمل في سفارتنا هناك منذ ثلاث سنوات لأستفسر عن حقيقة هذا العيد وماهية

علاقته بـ " الخيوط" تلك .. !

كانت زوجته هي التي ردت في الجانب الآخر من الهاتف ..

- قلت: السلام عليكم وعيدكم مبارك.. !
- أجابت : وعليكم السلام ، ولكن أي عيد ..؟!
- قُلت : أي عيد ..؟! ماذا تقولين ، أنتِ في الهند منذ ثلاث سنوات وتسأليني أي عيد..؟!
- قالت: الذي أعرفه أن عيد الفطر يأتي بعد خمسة أشهر وعيد الأضحى بعده بشهرين..
- قُلت : لا هذا ولا ذاك إني أحدثك عن عيد " الخيوط "..؟
- قالت : عيد " الخيوط " ..؟ ! ما هذا الذي تقوله ، أتراك في حالة طبيعية.. ؟!
- قُلت : يبدو أنك في وادٍ والهند في وادٍ آخر ، أعطيني زوجك لأفهم منه.
- ضحكت كثيراً ثم قالت : والله أنا لا أفهمكم أبداً أنتم معشر الصحفيين..!
- وجاءني زوجها على الهاتف فقلُت له ، مبروك لكم العيد وكل عام وأنتم بخير .
- قال مازحاً: أتراك مستعجلاً على العيد .. ؟!
- قُلت : مستعجلاً .. ؟! بل قل متأخراً ، فالعيد على وشك أن ينتهي..
- قال : لينتهي إذاً، ولكن أي عيد تقصد .. ؟!
- قُلت : عيد " الخيوط " .. !
- قال وهو يضحك: يا أخي عرفنا كل الأعياد لكننا لم نعرف حتى

الآن عيداً اسمه عيد الخيوط ..!

- قُلت : تعال إذن لأ شرح لك..

وأغلقت سماعة الهاتف ثم غادرت غرفتي بانتظار صاحبي في بهو الفندق ، وبعد أقل من نصف ساعة وصل صاحبي وصاح من على بعد: العيد وفهمناه ، ولكن ماذا عن " الخيوط " ..؟!

قلت: يا أخي أنا الذي أسألك ، انظر إلى هؤلاء الهنود ، أليس في معصم كل واحد منهم قطعة قماش أو خيط .. ؟!

ضحك من كل قلبه وقال : أمن أجل هذا جعلتني أترك بيتي وأقطع كل هذا الطريق لأصل إليك .. ؟

قُلت : أفتونا يرحمكم الله ، فالنادل يقول إنه العيد ، عيد "الخيوط"..!

قال : يا أخي ، لا خيوط ولا هم يحزنون ، إنه عيد الأخوة ، ومن عاداتهم هنا أن يشد كل شخص في صبيحة هذا العيد خيطاً أو قطعة قماش حول معصم أخت له أو أية امرأة يعدها مثل أخته، وكذلك بالنسبة للمرأة مع الرجل تعبيراً عن العلاقة التي تشدها المحبة والمودة والإخلاص الأبدي ، ومن محاسن هذا العيد أنه يجعل الناس أخوة، إذ يتعاهدون فيما بينهم على الوفاء والمحبة حيث يصبح للمرء أكثر من أخ أو أخت ، وهكذا يصح القول " رُب أخ لك لم تلده أمك " ، فهؤلاء أخوة بالعهد يتعاهدون على ذلك علناً ويؤكدونه كل سنة ، وبالمناسبة فإن الذي يشد مثل هذا الخيط حول معصم امرأة تصبح أختاً له ولا يحل له الزواج منها بعد ذلك.. !

قُلت : عجبي ، كل ذلك وأنا أقول عيد " الخيوط " .. ؟!

كادوا يذبحوننــــا.. !

كثيرة هي الأديان في الهند ، ولكل دين عاداته وطقوسه ، غير أن ما لفت انتباهي هناك ذلك الدين الذي يقدس الأصنام.. !

فالأصنام هذه " موضة " قديمة بالنسبة لنا نحن المسلمين ، فقد مضت وانقضت منذ بزوغ شمس الإسلام قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ، لكنهم هناك ما زالوا يعبدونها عند بعض الطوائف ، إنهم يقدسونها بطرق مختلفة ، فهذا الرجل يقف متسمراً أمام أحد الأصنام وكأنه قد أصبح مثله صنماً منحوتاً لا يتحرك لكنه يتمتم بكلمات يصعب فهمها أو حتى سماعها..

وعندما قُلت لصاحبي يومها إنني أرغب في دخول أحد معابدهم فوجئ وقال: دعك من هذا الأمر أرجوك ..

قُلت : أنا الذي أرجوك ، ولا أعتقد في ذلك ضيراً..

قال: بل كل الضير ، يا أخي إنهم لا يسمحون لأحد غريب أن يقتحم معابدهم..

قُلت: وكيف سيعرفون أننا غرباء ، دعنا نذهب واترك الباقي لي .

قال : ماذا أترك لك ، سيذبحوننا لو عرفوا بأننا جئنا ل "الفرجة" فحسب .. !

قُلت ضاحكاً : يا أخي توكل على الله ، وإلا سأذهب لوحدي وأحملك المسؤولية ..!

قال بتثاقل : سنذهب وأمري إلى الله الواحد الأحد.. !

وعندما وصلنا إلى ذلك المعبد، وكان الوقت مساء، فوجئت بصاحبي هناك يمتنع عن الدخول لأنه اكتشف أن الطائفة تلك كانت تحتفل في ذلك اليوم بالذات بيومها المقدس، وذلك يعني أنهم في عنفوان خشوعهم وهو أمر لا يمكن المجازفة معه أبداً..!

غير أنني على العكس منه تشجعت كثيراً عندما رأيت أعداداً كبيرة من الناس تصعد سلالم ذلك المعبد الذي يقع فوق أرض مرتفعة ثم تنزل منه ، إذ أن ذلك يعني أن بالإمكان أن نحشر أنفسنا بينهم دون أن نلفت نظر أحد..

المهم، خضع صاحبي للأمر الواقع ، وفي اللحظة التي بدأنا فيها بصعود السلم ارتكبت خطأ كاد يودي بنا إلى ما لا تحمد عقباه ، فقد وضعت قدمي على السلم دون أن أخلع حذائي مثلما يفعل الآخرون وفقاً لتقاليدهم الدينية تلك ، غير أن صاحبي سحبني من ذراعي بقوة لينبهني إلى ذلك وقد لاحظت حينها أن رجلاً مسناً يجلس بين جموع الشحاذين أسفل ذلك السلم قد رمقني بنظرة حادة أثارت في داخلي شيئاً من الخوف..

صعدنا وأنا أهمس في أذن صاحبي بكلمات تشجيعية عله يستعيد ثقته التي بدأت تهتز ، ثم طلب مني أن أقوم بنفس الحركات التي يقوم بها الآخرون لكي لا نثير انتباه أحد ، لكنني لاحظت أن الحركات تلك تختلف من شخص لآخر ، فهذا واقف وذاك يركع والآخر يجثو منكفئاً على وجهه ، والكل عابسون تماماً لا أحد منهم يبتسم أبداً ، بل إن بعضهم كان غارقاً في البكاء والدموع تملأ عينيه ، لماذا؟ لا أدري بالضبط ، لكنني أعتقد أنها المشاعر ذاتها التي تنتاب أي شخص وهو يمارس الطقوس الدينية التي يؤمن بها أياً كانت ديانته .

على العموم فقد بدأنا بالتجوال داخل ذلك المعبد ، شاهدنا تلك الأصنام التي طليت بالذهب أو صنعت منه، لا أعرف بالضبط ، لكنها كانت مذهبة وموضوعة داخل أقفاص من الزجاج ..

كان المعبد يعج بالكثيرين ، غير أنني لمحت من بين الكثيرين هؤلاء ذلك الشحاذ الذي رمقني بتلك النظرة الحادة أسفل السلم وكأنه يتبعنا ويلاحقنا بعد أن ارتاب بأمرنا منذ الخطوة الأولى ..

وحالما هممت بإبلاغ زميلي بالأمر المريب هذا فوجئت بأحدهم وهو يمد يده ليصافح صاحبي الذي أخذته الدهشة تماماً بحيث لم يعد يعرف ماذا يفعل وهو يقع بين يدي واحد منهم متلبساً بـ " الجرم " المشهود ..!

ولعل الدهشة أو ربما الرغبة في أن تكون نهايتنا واحدة هي التي دفعت صاحبي لتقديمي إلى ذلك الرجل بحجة تعريفه بي فقال له: هذا صاحبي ، صحفي جاء ليعد كتاباً عن الأصدقاء في الهند و معتقداتهم الدينية ..

ابتسم الرجل الهندي وقادنا إلى إحدى الزوايا وقال: عليكم أن تغادروا المعبد فوراً ، فقد أبلغنا أحدهم بوجودكم منذ اللحظة الأولى وكان يمكن أن يصيبكم مكروه لولا أن أخبرت " صاحب المجد " بأنكم ضيوفي وأن دخولكم كان عن طريق الخطأ ..!

غادرنا المعبد فوراً ، بل عدواً ، وعند أسفل السلم بدا الشحاذ وكأنه يهم بالهجوم علينا لولا أن أنقذنا ذلك الصديق الذي يحب العرب وكان قد زار العديد من البلدان العربية وله أصدقاء كثرٌ فيها ومنهم صاحبي الذي سبق وأن تعرف عليه في إحدى السفارات العربية عندما كان يهم بالحصول على سمة دخول قبل أيام قليلة فقط، فكان التعارف ذاك هو الذي أنقذني وأنقذ صاحبي الذي كادت روحه تزهق بسبب من فضول صحفي " متهور " .. !

استحضار الأرواح حق للرجال دون النساء ..!

لو قدر لك أن تزور الهند فأنا أنصحك أن تقرأ عنها الكثير قبل السفر، ذلك انك ستكون هناك بحاجة إلى أوليات تفسر لك مظاهر وأعاجيب شتى ، والأعاجيب هذه منها ما يرتبط بالطقوس والمعتقدات الدينية الكثيرة ومنها ما يتصل بالأساطير التي لا تنتهي هي الأخرى.

فهناك مثلاً ستفاجأ بمشاهدة جثث متروكة في العراء والطيور تأكل منها ..!

وعندما تسأل يأتيك الجواب : إنهم ممن يعبدون النار، فهؤلاء لهم طقوسهم الخاصة عند الموت ، إنهم يعلقون جثث موتاهم فوق شجرة لتأكل منها طيور معينة يسمونها (قالت شرز) ، والقالت شرز هذه تتسابق على أكل العينين أولاً ، فهي تحب العين أكثر من أي جزء آخر في جسم الإنسان..!

والبعض من هؤلاء يعمد إلى بناء برج يطلقون عليه " برج الصمت " وليس لأحد أن ينبس ببنت شفة عندما تبدأ الـ "قالت شرز" بالتهام طعامها..!

أما البرج هذا فهو أشبه بالسقيفة فوق حفرة أو بئر تُملأ بحامض كيماوي معين ، وعندما توضع الجثة فوق سقيفة البرج فإن الطيور تأكل لحمها ثم ترمي العظام في تلك الحفرة لتتلاشى تماماً بفعل ذلك الحامض الكيماوي .

إنها طقوس غاية في الغرابة، لكنهم يعتقدون أنها تقربهم إلى الإله وتزيل عنهم غضبه ، غير أن البعض من أتباع هذا الديانة بدأ بالخروج عن هذه الممارسات وأصبح يطالب بتغييرها ، وقد أوصى عدد منهم بحرق جثته أو دفنها بدلاً من أن تترك طعاماً لطيور الـ (قالت

شرز) ، إلا أن هؤلاء اختاروا طريق (الكفر) و (الارتداد)، لذلك فإن أحداً من رجال الديانة هذه لن يقبل الصلاة على أجسادهم بعد الموت..!

أما الهندوس فقد اختاروا الحرق ، أنهم يحرقون جثث موتاهم وبالتالي فإن ذويهم غالباً ما يحتفظون بالرماد المتبقي من تلك الجثث في علب خاصة أو ينثروه فوق الحدائق أو فوق مياه الأنهار ..

وبالمناسبة فإن للبعض من الهندوس حكايات غريبة ليس بالنسبة لما يؤمنون به عن مسألة تناسخ الأرواح فحسب بل وفي مسائل أخرى عديدة ، أحدثكم عن واحدة منها ...

فالرجل الهندوسي مثلاً يمكنه أن يفعل ما يشاء ويتمتع بملذات الحياة كيفما يشاء ما دام لم يعلق حول رقبته ذلك الشيء الذي يشبه " التعويذة " .

غير أنه وبمجرد أن يعلق تلك التعويذة بعد سن معينة من مرحلة الشباب يصبح رجلا مقدساً ولا يمكنه ممارسة تلك الملذات مثلما كان يفعل من قبل.

و"التعويذة" تلك ستبقى معلقة في جيده مدى الحياة ، فهي الشاهد على "طهره" يوم الحساب..!

أما المرأة هنا فهي لا ترتدي " التعويذة " لأنها ، وفقاً لما يذهبون ، ليست مقدسة ولا يمكن أن تكون مقدسة ، لذلك فإنها لا تتمتع بموهبة الرجل التي توفرها له قدسيته.

وموهبة الرجل هذه تكمن في قدرته على استحضار الأرواح، إنه يمتلك القدرة على مناداة أرواح أجداده لأمه وأبيه حتى الجد السابع، وعندما يستحضرهم يكلمهم ويكلمونه ويحاورهم حول كل ما يريد،

أمـا إذا رغبـت المرأة فـي اسـتـحـضـار روح أحـد أجـدادها فـإنهـا سـتكون عـاجزة عن ذلك ، لذلك فـإن عليـها أن تسـتعين بـزوجهـا لأن الأرواح لا تـرد علـى النسـاء ، ربما لأنهن يتحـدثن كثيراً ويثرثـرن كثـيراً ، أقول ربما والله أعلم.

ومن بين الطقـوس أو العـادات الدينيـة هناك أيضـاً مـا يمارسـه " السـيخ "، و " السيخ " أو السـيك يجمـعـون بين مبـادئ الدين الهندوسي ومبادئ الدين الإسـلامي ، فهؤلاء لا يعبـدون الأصنام أو الأحجار وإنما يعبـدون إلهاً واحداً ، وإذا ما صـادفك رجل يغطي شعره بعـمامة كبـيرة ويلف لحيته بطريقة معينة فاعرف أنه من "السيخ"، فهؤلاء لا يقصون شـعـرهم أو لحـاهم طـوال حـيـاتهم. ومن تعـاليم ديانـتـهم الدعـوة إلى التـوحـيـد وإنكـار عبـادة الأوثان أو تـقـديس الأصنام وإنـكـار التـفـرقـة الطبقـية، أي الاعـتـراف بالمساواة الإنسـانية المطلقـة ، ويحـتـفظ السيخ أيضاً بعقيدة التنـاسخ وتقديس البقـرة..

أما بـالنسـبة للأساطيـر في الهند فحدث ولا حـرج ، إنهم يزفـرون (نسـبة إلـى الزفـير) أسـاطير ، ولـو أردت أن تسـتـمع كل يوم إلى أسطورة مـن أسـاطيـرهم لاحـتجت إلـى أعمـار أخـرى غـير عـمـرك ، فـأيامك لـن تكفـي أبداً ..!

ولعل مـن بين أجمل الأسـاطير تلك التـي تتـحـدث عن عمـر الإنسان، حيث تقول الأسطورة إن الإله وبعد أن انتهـى من خلق العـالم، اختـار أن يكون عمر كل كائن حي (ثلاثين) عاماً .

وقد رأى الإله أن يستدعي المخلوقات ليبلغهم بقراره هذا ، وشـاءت الصـدف أن يكون الحـمـار أول الحـاضـرين فـأبلغـه الإله بأن عـمـره سيكون ثلاثين عاماً .

غير أن الحمار انبرى باكياً وراح يتوسل ويدعو الإله إلى تقليص عمره لأن عمره كله كد وتعب ومشقة، فعطف الإله على الحمار وجعل عمره (١٨) عاماً بدلاً من (٣٠) عاماً.

ثم جاء دور الكلب ليبلغه الإله بأن عمره سيكون ثلاثين عاماً، إلا أن الكلب راح يتوسل هو الآخر ويدعو الإله إلى تخليصه من طول عمره الذي سيقضيه في المطاردة والنباح والحراسة ، فعطف الإله عليه وجعل عمره (١٢) عاماً بدلاً من (٣٠) عاماً.

ولما جاء دور القرد وعرف بأن عمره سيكون ثلاثين عاماً، غضب وبكى وراح ينط ويتوسل الإله ويرجوه أن ينقذه من هذه المصيبة التي ستجعله يتعذب طوال ثلاثين عاماً ، فعطف الإله عليه وجعل عمره عشرة أعوام بدلاً من ثلاثين عاماً.

عندها جاء دور الإنسان، حيث أبلغه الإله بأن عمره ثلاثون عاماً ، فبكى الإنسان وتذمر وراح يتوسل ليس لأن عمره سيكون طويلاً وإنما لأنه قصير حيث أنه سيكون في مقتبل عمره وقد بدأ تواً في التمتع بحياته الخاصة مع بيته وعائلته ، فاستجاب الرب لدعواته وأضاف له ثلاثين عاماً أخرى أخذها من عمر الحمار والكلب.

غير أن الإنسان الطماع الذي لا يشبع ظل يتودد ويتوسل ويطلب المزيد لأنه يريد أن يعيش أكثر ليرى أحفاده ويتمتع باللهو معهم.

عندها قرر الرب أن يضيف إلى عمره عشرين عاماً أخرى أخذها من عمر القرد هذه المرة.

وهكذا صار الإنسان إنساناً في الثلاثين الأولى من عمره لأنه عمره الحقيقي ثم يدخل بعدها مرحلة الكد والتعب والمشقة طوال (١٢) عاماً أخذها من عمر الحمار ليبدأ بعدها مرحلة اللغو والحراسة

والانزواء بعيداً عن الناس والتفرغ لملاعبة أحفاده من الصغار طوال (١٨) عاماً أخذها من عمر الكلب لتأتي بعدها مرحلة الندم والتعكز على قطعة من خشب استدانها من شجرة كان ينط فوقها القرد الذي أخذ منه عشرين عاماً ..!

نيام يشبهون الموتى... !

عندما وصلنا إلى "كلكتا" كان الظلام قد بدأ ينزاح ، فالصباح يطرق الأبواب ، وذلك أمر أتاح لنا رؤية مناظر أو مشاهد قد لا نراها في أوقات أخرى.

كنا نقطع الطريق بين المطار والفندق الذي سننزل فيه بسيارة صغيرة برفقة ذلك الشاب الهندي البدين الذي كان ينتظرنا في المطار، ولا أدري بالضبط لماذا اختاروه لمرافقتنا دون غيره.

عند وصولنا إلى المطار وجدنا هذا الرجل نائماً في المقعد الأمامي للسيارة ، وقد عذرناه يومها لأن الوقت هو وقت النوم ، أو ربما يكون قد تعب من طول الانتظار الذي امتد إلى أكثر من عشر ساعات بسبب الإشكال الذي حدث في رحلة الطيران بين دلهي وكلكتا.

المهم أن صاحبي وأنا اتفقنا على أن لا نوقظه إلى حين وصولنا إلى الفندق لأن منظره وهو " يشخر " بصوت عالٍ داخل السيارة يوحي بأنه كان متعباً حقاً ، غير أنني وبعد نحو نصف ساعة فقط أمضيناها في الطريق هززت كتفه لأوقظه كي يشرح لنا أو يوضح شيئاً عن هذا العجب الذي نراه..!

أما الذي كنا نراه فهو منظر لا يمت إلى الإنسانية بأية صلة، مئات من البشر يفترشون الأرض ويلتحفون السماء عند الشارع الذي كنا نقطعه وفوق أرصفة الجانبين، كانت الأجساد تبدو متلاصقة ، كل واحد بجوار الآخر بحيث يصعب عليك أن تعرف الذكر من الأنثى أو الطفل من العجوز، فكلها هياكل عظمية تبدو متشابهة ويعلوها الصدأ، لا شيء يفصل تلك الأجساد عن الأرض، والمشكلة أن السماء بدأت تمطر ورغم ذلك فإن أحداً لم يتزحزح من مكانه، الكل نيام، نيام يشبهون الموتى تماماً.. !

فـزع الشـاب الهندي عندمـا هـزت كـتـفـه ، فـالـتـفـت إلينا بـعـينين زائغتين وراح يبحث عن سبب إيقاظه من نومه..

قلت : عذراً ، لكننا نسأل عن هذا الذي نراه..!

فـضـحـك، واهـتـز كـرشه وقـال بما يشبـه المزاح : كـلاً، سـتـنـامـون في فندق فخم...!

قلت : أنا أتحدث عنهم وليس عنا ..

قال: الأفـضل أن لا تفكر في أحد ، فـهكذا هم ، إنك لن تغيـر شيئـاً من بؤسهم .

علق صاحبي مـازحاً: إنه يقول الحق ، فدعه يعود إلى شخيره ..

وهكذا تركـتـه ورحـت أجـول ببـصـري صـوب تلك الـصـورة التي لا يمكن أن أنسـاها أبداً ، صـورة تلك الـفـتـاة الـصـغـيـرة التـي بدت وكـأنـهـا تستـحـم بقطرات المطر المتـصـاعـدة مع تصـاعـد ضـيـاء الـنـهـار في أفق سماء لا أدري كيف تتـحمل رؤية صور مأساوية كهـذه أو ربما أسوا منها كل يوم، بل كل لحظة.. !

عندما وصلنا إلى فندق (اوبروي غراند)، وهو من الفنادق الفخمة والكبـيرة في كلكتـا، استـيـقـظ مـرافـقنا على صوت الـسـائق ، فخـرج من السيـارة وخرجنا مـعه ، ثم دخلنا الفندق وتحدث إلـى رجل الاستقبـال بكلمـات قليلة ليـغط بعدها في النوم مـن جديد بعـد أن رمـى بجسـده على أقرب كرسي.

أما رجل الاستقبـال فقد بدأ يملأ الاستمـارات الخـاصة بـالسكن في حين راح سائق السيـارة ينزل حقـائبنا ليسلمهـا إلى رجل الخدمة الذي قادنا إلى غرفنا في الفندق .

الفندق واسع وكبير، وفيه مطاعم عدة ، ومسبح جميل وحدائق أجمل، أما غرف النوم فهي في منتهى الروعة.. فالسرير مغطى بسقيفة مزخرفة من خشب البلوط الأصلي وتشبه تماماً تلك التي تتحدث عنها أساطير الهند ، أما الحمام فهو حمام خرافي فعلاً، صنابيره مذهبة وحوضه دائري وأرضيته مغطاة بنوع من السجاد الذي لا يبتل ..

أما التلفاز فإنه ينقلك إلى العالم كله عبر القنوات الفضائية إضافة إلى قنوات أخرى يمكنك أن تستخدمها لمشاهدة الأفلام المثبتة عناوينها أمامك بمجرد أن تضغط على رقمين من هاتف غرفتك الموزع بين ثلاثة أجهزة أحدها قرب سريرك والآخر عند الطاولة والثالث في الحمام .

وإلى جانب كل هذا، هناك نافذة واسعة في الجانب البعيد من الغرفة أسدلت عليها ستائر من حرير..

وعند الصباح وأنت تزيح الستائر تلك ستكتشف أمراً مهولاً ينغص عليك متعتك في الفندق الذي أسكنوك فيه ليجعلوك تماماً مثل أولئك المهراجات الذين يعيشون في الجنة التي صنعوها لأنفسهم ومن حولهم جحيم من البؤس يعيشه الآخرون ممن يحيطون بهم من كل جانب..!

فمن خلال زجاج تلك النافذة ستشاهد في الشارع الخلفي المليء بالحركة ذلك الرجل الطاعن في السن وهو يجر عربة جلس في مقعدها شخص أو اثنان أو ربما أكثر .. وتشاهد أيضاً ذلك الرجل النحيف جداً وهو يضع على كتفيه خلف رأسه قضيباً من الخشب أو المعدن وقد علقت في نهايتيه أربعة جرادل مليئة بالماء لينقلها من

مكان إلى آخر ، أما ذلك الجسد الذي وضعوه في سيارة تشبه سيارة النفايات فالأرجح أنه جثة هامدة لشحاذ مات تواً..

وبين كل هذه المناظر التي تثير الألم في النفوس تتراءى أمامك صورة تلك الوجوه الكالحة التي لمحتك وأنت تنظر من النافذة ليرفعوا أياديهم نحوك وكأنهم يناجونك بالعطف والشفقة..!

وأنت أمام صور كهذه لا يمكن أبداً إلا أن تنقذ قلبك الذي بدأ يتقطع ألماً فتفر من النافذة وتعيد إليها ستائرها الرقيقة التي تفصل رغم رقتها بين عالمين متضادين مختلفين كل الاختلاف ، عالم الترف والغنى، وعالم البؤس والمشقة..!

عندها غادرت غرفتي التي كرهتها منذ اليوم الأول لوصولي، ثم كرهتها أكثر وأنا أشاهد تلك الفتاة الهندية التي ترتدي نصف بنطلون وتمسك بيدها سلسلة من الذهب كانت تنتهي برقبة كلب يجول معها في أروقة ذلك الفندق المحاط بالبؤساء من كل جانب..!

وفي بهو الفندق، وأنا أنتظر صاحبي سألت رجل الاستقبال عن مرافقنا البدين فأشار نحوه وهو يبتسم ، إنه يغط في نوم عميق على الكرسي نفسه الذي كان قد رمى بجسده إليه ساعة وصولنا إلى الفندق.

حدث في أحد شوارع كلكتا ..

هذا ليس تسامحاً ، إنه شيء يبط القلب ويجعل الأعصاب مشاعل من نار تحرق الرأس والجسد..!

فالرجل ذو الملامح الأوروبية هذا يستحق الذبح ، إنه بلا ذمة ولا ضمير، فبعد أن (استخدم) رجلاً عجوزاً واستعاض به عن الحيوان ليجره مع تلك الفتاة الشقراء فوق عربة بعجلتين على مدى نحو ساعة وهو يطوف بهما أرجاء المدينة يأبى أن لا يعطيه إلا جزءاً يسيراً من حقه اليسير أصلاً.

وعندما حاول الرجل العجوز الاعتراض بكلمات مهذبة وبصوت ينم عن الخنوع والخضوع بصق ذلك التافه في وجهه مثلما يفعل مع أي حيوان..!

المصيبة أن أحداً من أولئك الذين كانوا " يتفرجون " على المنظر ذاك لم ينبس بكلمة واحدة، بل إن أحداً منهم لم ينتصر ولو بطرفة عين لابن جلدته المسكين هذا.

وبيني وبينكم فإن الدماء غلت في عروقي إلى الحد الذي لم أعد فيه قادراً على السكوت، فتوجهت مع زميلي إلى ذلك اللئيم وطلبنا منه أن ينصف الرجل المسكين في حقه لا أكثر..

امتعض هذا الأرعن من تدخلنا وبدأ يزمجر بكلمات لا أفهمها، وبين كلمة وأخرى تطور الموقف إلى حد الاشتباك ، أما الآخرون فكانوا يتفرجون... المهم أن رجلاً من أفراد الشرطة حضر ، بالصدفة أم بالاستدعاء، لا أعرف بالضبط، ثم اقتادنا معاً إلى أقرب دائرة للشرطة وهناك راح التافه ذاك يهمس في أذن ضابط الشرطة بكلمات

جعلت الأخير ينتصر له ويوجه لي تهمة الاعتداء والتدخل في أمر لا يعنيني..!

حاولنا أن نوضح الموقف لكن دون جدوى ، طلبنا شهوداً ولكن ليس من يسمع ، طلبنا استدعاء الرجل العجوز لاستجوابه، فجاءوا به وليته لم يأتِ، فعندما سألوه أجاب بأن خلافاً بسيطاً نشب بينه وبين الرجل الأوروبي حول أجرة النقل وهو خلاف "عادي" لا يحتاج إلى أي تصادم..!

لم يقل إنه قد أكل حقه وأهانه وبصق في وجهه، فالمشكلة عنده ليست أكثر من "خلاف بسيط" يحدث مع العشرات كل يوم..!

استعذت بالله من دوافع الشيطان، ولمت نفسي كثيراً ، فما لي وهذه المشكلة، ولماذا أتدخل في أمر لا يعنيني ، ولكن لا بأس فقد حدث الذي حدث وليكن بعدها ما يكون .

كان ذلك الأرعن عازماً على الذهاب بعيداً في المشكلة ، لم يكن يهاب شيئاً، خصوصاً بعد أن اطمئن لشهادة الرجل الذي يفترض أن يكون هو خصمه الحقيقي ، فنظراته كانت هي التي تتحدث ، كان يبدو وكأنه يقول لي : إن عليك إذن أن تتقبل النتائج ما دمت قد جعلت من نفسك نصيراً للضعفاء والمساكين. أما أنا فقد كنت أتمنى لو أن أنفرد به بعيداً عن رجال الشرطة..

وبين لحظة وأخرى وجدت الأمر وقد بدأ يتطور فعلاً ، فخصمي هذا صار يطلب تدخل سفارة بلاده ، ويبدو أنه يحمل جواز سفر دبلوماسياً يمنحه حقوقاً لا أمتلكها ، أما أنا فليس عندي سوى هويتي الصحفية الدولية التي راهنت عليها بما يشبه اليأس ورميتها على طاولة ضابط الشرطة فكان وقعها مثل الديناميت ..!

فضابط الشرطة الذي تركني كل هذه الفترة واقفاً أمامه وينظر نحوي بطرف عين واحدة نهض من وراء منضدته وراح يرجوني للجلوس ويلاطفني بكلمات غاية في الود والأدب ..!

رفضت الجلوس ، ورفضت كلمات التملق ، ثم أغلقت الموضوع "بخطبة" قصيرة قُلت فيها: أسجل أسفي الشديد لأنني أقحمت نفسي في مشكلة تخلى عنها أصحابها وتنكر لها طرفها الحقيقي لأصبح فيها أنا المتهم ، أما أصحابها فهم أنتم يا من رضيتم أن يُهان رجل عجوز منكم ورحتم تدافعون بلا وجه حق عن رجل تافه لئيم تجاوز على حرمة أبنائكم في عقر داركم ، أما ذلك العجوز فأنا لا ألومه لأنه يدرك على ما يبدو معنى التصادم مع سائح أجنبي منتفخ الجيوب..!

سحبت هويتي وخرجت ، في حين ظل ضابط الشرطة جامداً لا يعرف ماذا يفعل أو يقول، بينما بدا ذلك الأوروبي متجهم الوجه وكله حقد ويتمنى لو أن الأمر قد انتهى بي إلى السجن..

كانت تلك صورة فحسب مما يسمونه بالتسامح عند الهنود ، فالهنود طيبون جداً و"متسامحون" إلى حدود غير مألوفة عند الآخرين ، ربما تسميه أنت أو أنا بالضعف لكنه (التسامح) في نظرهم ، وبسبب " تسامحهم " هذا فإن من النادر جداً أن تشهد مشاجرة من ذلك النوع الذي حدث لي مع الرجل الأوروبي.. وإذا حدث وأن تخاصم رجل مع آخر فإن الأمر لا يتعدى بضع كلمات يتراشقان بها ثم ينتهي بهم الأمر كل إلى حال سبيله.

والى جانب البناء الفكري والثقافي والاجتماعي الذي تقوم عليه الشخصية الهندية فأن لطبيعة الجو هناك علاقة بهذا الأمر على ما يبدو ، فالحرارة والرطوبة العالية تؤديان في الغالب إليشيء من

الخمول ، وقد يكون الخمول هذا هو الذي يجعل أعصاب أغلب الهنود " باردة " أو كأنها في خدر دائم..!

المهم أن التسامح هذا صفة ملازمة للرجل الهندي ، إنه يرثها عن آبائه ويتمسك بها إلى حدود بعيدة جعلته يمقت تماماً أي تصادم أو صراع ، وربما بسبب من هذا التطبع أصبح الهندي مسالماً يرفض تماماً أي مواجهة يمكن أن تؤدي إلى إراقة الدماء ، ولعل هذا هو جوهر الفلسفة التي جاء بها المهاتما غاندي وواجه بها المستعمر الانكليزي وانتصر عليه بدون سلاح لتكرس بعدها فلسفته وتصبح جزءاً من الشخصية الهندية..

والفلسفة هذه كانت واضحة أيضاً في فكر وعاطفة الشخصية الهندية المعروفة جواهر لال نهرو، بل وفي طبيعة تصرفاته وفي تعامله مع مفردات حياته ، ففي مذكراته التي تحمل عنوان " قصة حياتي " يقول نهرو إنه قرر يوماً أن يعتزل السياسة ويبتعد عن العمل السياسي لأسباب كان لها على ما يبدو علاقة بخلافات حدث بعضها داخل حزبه " المؤتمر الهندي " ، وبسبب من الفراغ الذي بدأ يعيشه استجاب يوما لدعوة من أصدقائه للخروج معهم في رحلة للصيد .

يقول نهرو إنه في ذلك اليوم كان قد أمسك البندقية لأول مرة في حياته ، وقد شاءت الصدف أن يمر أمامه على بعد مسافة معينة دب صغير ، و بدفع وتشجيع من زملائه رفع نهرو بندقيته ليصوبها نحو ذلك الدب ثم أطلق رصاصة قادها القدر لتستقر داخل جسد ذلك الحيوان المسكين ، وبين مصدق ومكذب هرول نهرو مع أصدقائه نحو الدب الذي سقط جريحاً فوق تلك الربوة فوجده يتلوى ألماً ويئن تحت وطأة تلك الإصابة القاتلة.. وفي وصفه لهذا المشهد يقول نهرو

إنه شاهد الدب وهو ينظر بعيون دامعة نحوه بالذات - أي نحو نهرو - دون غيره وكأنه يعاتبه على فعلته تلك..!

ليس لأحد أن يصدق طبعاً أن الدب كان يعاتب نهرو أو أنه كان ينظر إليه دون غيره، لكنه الشعور بالذنب والأسف هو الذي جعل نهرو يعتقد ذلك، بل هو منظر الدم الذي كان يسيل من جسد ذلك الحيوان وقد أثار عاطفة نهرو وجعله يندم على فعلته تلك..

ومن يومها قرر نهرو أن لا يمسك بندقية أبداً ، ولم يمسكها فعلاً بعد ذلك طوال حياته الحافلة بالأحداث و الصراعات السياسية على مدى سنوات طوال..

تلكم هي إذن فلسفة الهنود، وتلكم هي معتقداتهم التي ترسخت وتعمقت في الروح الهندية بحيث جعلت من التسامح والمسالمة والتحمل صفات خالدة قد لا نجدها أبداً عند الشعوب الأخرى ولو بدرجات أقل مثلما قد لا نجد أيضاً عند غيرهم ذلك القدر الكبير من العزة بالنفس والتي جعلت من الهند الدولة الوحيدة في العالم التي ترفض المساعدات الخارجية عندما تصاب بأية نكبة من النكبات الطبيعية التي يمكن أن تحدث في أي مكان..

عندما وقعت في الفخ..!!

يتراءى لك أولاً أن الهنود يتشابهون ، فالملامح واحدة، والصبغة واحدة، والابتسامة واحدة، والأجسام النحيفة التي تميل إلى قصر القامة تكاد تكون واحدة هي الأخرى، لذلك فلا تستغرب أو تندهش إذا ما وقعت في الفخ مثلي..!

فعندما وصلنا إلى مطار كلكتا كانت هناك مجموعة من الشباب في استقبال وفدنا الذي بلغ قوامه (٢٥) شخصاً ، وقد انبرى هؤلاء الشباب لتقديم التحيات لنا حال وصولنا ، وراحوا يلبسون كل واحد منا إكليلاً من زهور " الفل " تعبيراً عن تقديرهم واعتزازهم بضيوفهم ، وهي على ما يبدو إحدى العادات الجميلة في الهند التي تستقبل ضيوفها بالورود .

ولأن ضوء كاميرتي قد تعطل فجأة ، ولأن صور الاستقبال والحفاوة هذه تهمني في عملي الصحفي فقد طلبت من أحد المصورين الذين كانوا يصورون استقبالنا ذاك أن يزودني في ما بعد بصورة أو اثنتين فقط لا غير.

وقبل أن أطلب الصورة تلك سألت الرجل: حضرتك مصور صحفي، أم مصور تعمل لحسابك الخاص..؟

أجاب : مصور صحفي..

● وفي أية صحيفة تعمل..؟

- في صحيفة (...)

● طيب، أنا زميلك صحفي أيضاً وقد تعطلت كاميرتي فوجدت أن أستعين بك لتزودني بنسخة أو اثنتين فقط من الصور التي

ستبعث بها إلى جريدتك لأنني سأكون بحاجة إليها عند عودتي إلى بلدي..

- أجل، سأحضرها بنفسي إلى الفندق الذي تسكنون فيه، فقط أعطني اسمك أرجوك..

ونسيت الأمر ، غير أنه لم ينسَ على ما يبدو ، فبعد ثلاثة أيام رن هاتفي في غرفة الفندق ، وقد أخبرتني موظفة الاستقبال بأن رجلاً يعمل مصوراً صحفياً يطلب أن يراني..

قُلت متسائلاً: مصور صحفي، وماذا يريد..؟!

قالت: لديه صور يرغب أن يسلمها إليك بنفسه..

واستدركت وقُلت: نعم، دعيه يحضر إلى غرفتي رجاءً..

وحضر، واستقبلته بكل حفاوة ، لأنني بصدق كنت ممتناً جداً لحرصه على الوفاء بوعده وإحضار الصور التي طلبتها منه .

طلبت له فنجاناً من القهوة ، ورحت أحدثه عن طبيعة التعامل بين زملاء المهنة الواحدة وكيف يمكن أن يحتاج واحد منهم للآخر مثلما حدث لي في المطار، ووعدته أن أكتب عنه في صحيفتي بعد عودتي لبلدي مثمناً ومكبراً روح التعاون عنده .

غير أنه لم ينبس ولو بكلمة واحدة ، كل الذي كان يفعله هو أن يبتسم ويهز رأسه بالإيجاب ، ثم مد يده ليسلمني صورتين اثنتين فقط، شكرته عليهما كل الشكر وأمعنت في شكري وطلبت منه أن ينقل تحياتي وأمنياتي إلى زملائه في الصحيفة التي يعمل بها، إلا أنه وهو يهم بالخروج نطق ويا ليته لم ينطق..!

قال: إن كُلفة هاتين النسختين من الصور ثمانون دولاراً..!

يا للهول، إنه يريد إذاً ثمانين دولاراً.

قُلت: ثمانون دولاراً، وماذا بعد..؟!

قال: ذلك أمر متروك لك..

ضحكت كثيراً، لا أدري بالضبط عليه أم على نفسي، إنه لا يكتفي بالثمانين دولاراً، وإنما ترك لي أمر ما يمكن أن أتكرم به عليه زيادةً على هذا المبلغ الذي قال بأنه يمثل مبلغ " الكلفة " فقط..!

قُلت: أتراك متأكدا مما تقول أم أنك تمزح..؟!

قال: ولماذا أمزح..؟!

قُلت: إذن فهو ابتزاز، لذلك فأنا أسحب كل كلمة مديح قُلتها بحقك، فأنت لص محتال ولست مصوراً صحفياً، خذ صورك واخرج فوراً..!

قال: كيف ، وأين أذهب بالصور..؟ !

قُلت: إلى جهنم ، أو دعني أقول لك شيئاً ، انتظر قليلاً .. ورفعت سماعة الهاتف لأطلب رجل الأمن أو الشرطة في الفندق وقبل أن أكمل كلامي اختفى الرجل بلمحة بصر تاركاً وراءه الصورتين اللتين لا يساوي ثمنهما في الواقع قيمة فنجان القهوة الذي شربه في غرفتي، وليس ثمانين دولاراً كما كان يدعي..!

ضحكت كثيراً من هذا الموقف ، ولكني أشفقت على الرجل، فهو كان يعتقد على ما يبدو أن ثمانين دولاراً هو مبلغ تافه بالنسبة لرجل يسكن مثل هذا الفندق الفخم، وربما تراه وقد راح يحلم بهذا المبلغ الذي سيتقاضاه مقابل صورتين اثنتين فقط ، لكنه لم يكن يدري أبداً أن تكاليف الإقامة هذه في هذا الفندق الكبير سوف لن أدفعها من جيبي ، بل سيدفعها الجانب الهندي المُضيف ، ولو كنت أنا الذي سأدفع لما جئت إلى الهند أصلاً..!

ثم، وأنا أهم بمغادرة غرفتي لأتناول وجبة الغداء في المطعم الأرضي اكتشفت أن ساعتي قد اختفت ، وساعتي تلك كانت على المنضدة قريباً من الكرسي الذي جلس عليه المصور المحتال ، عندها فقط أيقنت بأنني عندما ضحكت لحظة اختفاء ذلك الرجل أو هروبه إنما كنت أضحك على نفسي ، فساعتي تلك كانت تساوي أكثر من ثمانين دولاراً ، بل ثمانين دولاراً وما كان يمكن أن أتكرم به عليه..!

أخبرت الرجل الذي كان يرافقنا بما حدث وأنا متأكد أن ليس من فائدة ترجى من ذلك ، فالرجل نائم معظم الوقت ، ولكن لا بأس فهي مجرد محاولة ..

وراح هذا الرجل يتصل ، بمن ..؟ لا أدري ، فهو لا يعرف شكل ذلك اللص ولا اسمه أو عنوانه ، المهم أنه يجري اتصالاته..!

وبعد حين، جاءني يتساءل: هل يمكن أن تتعرف على شكل ذلك اللص..؟

- أجبت: بالتأكيد..

مضى الرجل، ثم جاءني بعد حين برفقة رجل شرطة ومعه مجموعة صور لأشخاص مشتبه بهم..

في هذه اللحظة بالذات اكتشفت أن ملامح الهنود تبدو متشابهة كثيراً، فقد بدا لي وأنا أتطلع إلى تلك الصور أن من العسير فعلاً أن أصل إلى الرجل الذي سرقني ، فالوجوه التي رأيتها تبدو متقاربة كثيراً في الشكل ، أما الرجل الذي نبحث عنه فإن شكله هو الأكثر شيوعاً هناك ، وأرجو أن لا تضحكوا عندما أقول لكم إنني رأيت رجل الشرطة ذاك وكأنه هو تماماً ذلك اللص المحتال ، فالشعر نفس الشعر، والبشرة نفس البشرة، والملامح هي ذاتها ، والعيون السوداء الفاحمة

والقامة التي تميل إلى القصر ..! ولكن لا بأس، انسوا الموضوع ولا تتعبوا أنفسكم..

ذلك ما قُلته لرجل الشرطة، فابتسم وانصرف، وعندما انصرف انصرفت أنا وزميلي أيضاً وكانت وجهتنا الأسواق القريبة من الفندق..

وهناك في زحمة الأسواق تلك لمحت رجلاً يرمقنا بنظرة جانبية ثم يفر..!

قلت لزميلي: إنه هو، وبدأنا نطارده، هو يركض ونحن نركض وراءه، وأثناء عدوي وراءه لاحظت أن يده اليمنى مقطوعة، فالأكمام متدلية بلا كف ولا ساعد، لكنني واصلت الركض وراءه، فإذا لم يكن هو، فلماذا يهرب إذن..؟!

المهم أننا وبسبب من متاهات تلك السوق الكبيرة فقدنا أثره، ثم رحت أتساءل مع نفسي هل كان هو حقاً، وهل أخفى يده اليمنى تحت قميصه بدافع التمويه أم أنها مقطوعة فعلاً.. لا أدري، لكنني أعرف جيداً أن المصور المحتال كان بيد يمنى سليمة، فقد صافحني بها عندما دخل إلى غرفتي .

لا عليك، قُلت لزميلي، وأضفت: علينا أن ننسى الموضوع لأن ذلك سيتعبنا كثيراً، ضحك وضحكت ثم فجأة توقف عن السير وهو يتلمس جيب بنطاله ليصرخ: محفظتي، لقد سُرقت..!

وهكذا، اكتشفت أن الرجل الذي كنا نطارده لم يكن هو المصور المحتال رغم الشبه الكبير الذي يجمعهما، إنه لص آخر سرق محفظة زميلي لحظة رمقنا بتلك النظرة الجانبية ثم فر بعد أن ظن أنني رأيته وهو يسرق تلك المحفظة التي اتضح فيما بعد أنها لم تكن تحوي أية نقود، بل أوراق، مجرد أوراق فيها أرقام هواتف الأصدقاء وعناوينهم وهوية يمكن إصدار أخرى بديلة عنها ..!

(كريستيان ديور) على الطريقة الهندية .. !

الأسواق عامرة في كلكتا مثلما هي في دلهي ، فكل شيء موجود وبأسعار مناسبة جداً وأحياناً زهيدة مقارنة مع أسواق أخرى في مدن أو بلدان غيرها.

ولعل أجمل ما في الأسواق هذه وأفضلها تلك المنتجات المتنوعة من الصناعات اليدوية ، والمنتجات هذه تباع هنا بأسعار متدنية برغم الجهد الكبير المبذول فيها ، لذلك تجد العديد من التجار الأجانب وهم يبتاعون مثل تلك المنتجات بأسعار زهيدة جداً ليبيعوها في بلدان أخرى بأسعار فاحشة..

فأنت تجد ، على سبيل المثال ، بذلة نسائية غاية في الأناقة والجمال وأنجزت بواسطة أصابع ماهرة جداً وخيوط من أرقى الأنواع ، تجدها وقد عرضت للبيع بسعر لا يتعدى خمسة وعشرين دولاراً في حين تجد البذلة نفسها وقد عرضت في إحدى محلات باريس مثلاً بسعر يصل إلى ألف دولار ..!

أما الأخشاب التي تبذل فيها جهود مضنية في النقش والزخرفة اليدوية فإنها أرخص كثيراً من تراب الخشب الذي يباع في أي بلد من بلدان أوروبا..

المهم أن السوق الهندية هذه مغرية جداً خصوصاً بالنسبة للتجار، وهي توفر بالنسبة لأي زائر فرصة في غاية الأهمية للتبضع، وذلك هو بالضبط ما دفعنا جميعاً إلى إنفاق آخر "روبية" في جيوبنا لنعود من الهند فيما بعد بحقائب ممتلئة تثير الرضا وتزيد من حفاوة الاستقبال لدى مستقبلينا عند العودة.. !!

ورغم كل هذا الكم الهائل من البضائع التي تملأ الأسواق رحنا كالعادة نبحث عن بضاعة مستوردة..! وعندما تسأل عن البضائع تلك يأتيك الجواب واضحاً يفيد بأن الهند لا تستورد شيئاً، إنها تصنع كل شيء بدءاً من الإبرة وانتهاء بالصناعات الثقيلة..

وبالمناسبة فإن الهند كانت قد دخلت عالم الصناعات الثقيلة منذ وقت مبكر ، لذلك فهي لا تحتاج مثلاً إلى استيراد السيارات، إنها تصنع سياراتها بنفسها، وان حدث وشاهدت سيارة أجنبية في الشارع فاعرف أنها إما أن تكون لرجل دبلوماسي أو زائر أو أنها دخلت عن طريق الاستيراد الشخصي، وبالتالي فهي قليلة جداً.

ويبدو أن السيارات الهندية جيدة جداً من حيث النوعية والمتانة، لكن الذي يعوزها هو جمالية الشكل الخارجي، فهي تبدو قديمة ، ولا أعرف بالضبط لماذا لا يهتم الهنود بهذا الجانب ، فالمظهر الخارجي يمكن أن يكون أهم بكثير من متانة المحرك عند الكثيرين، غير أن الأمر هذا قد لا يهم الهنود لأنهم يصنعون سياراتهم لأنفسهم على ما يبدو وهم قانعون بأشكالها وأحجامها التي يبدو بعضها مثل علبة صغيرة مغلقة على ركابها من الداخل..!

ولكي لا أنسى، أقول لكم إن السيارات هذه والتي تشبه "العلبة" يستخدمها أيضاً كبار المسؤولين في الدولة ، فهم لا يركبون سيارات المرسيدس الفارهة مثلما يفعل غيرهم في الدول الأخرى ، بل يركبون السيارات التي صنعوها في مصانعهم ويفخرون بها كل الفخر، وذلك من حقهم بالطبع .

نعود إلى موضوعنا فأقول، إنه برغم كل هذا الكم الكبير من البضائع رحنا نبحث عن بضائع غيرها مستوردة، وأنت تسأل عن ذلك يجيبك أحدهم بهمس ليقول: نعم، موجودة..

لكنك لا تدري مـاذا تعني هذه الـ "نعـم"، وربما ستكتشف مـعناها فيما بعد..

وضعنا أيدينا على كتف الرجل هذا ليوصلنا إلى سوق نحصل فيه على البضـاعـة الأجنبـيـة المستـوردة ، السـوق يقع تحت الأرض، أي أن عليك أن تهبط السلم عند إحـدى البـوابات لتنتـهي إلى مـا يشبـه الأنفاق المتلاصقة المكتظة بالمحلات.

والمحلات هذه لا تختلف عن غيرها، فهي تبيع البضاعة الهندية ، كل شيء مـوجـود فيـهـا من توابل وأبخـرة وعطور وملابس وحقـائب وأخشاب وقرطاسية، كل شيء..

تُرى ، أين البضاعة الأجنبية؟.. قلنا لصاحبنا فأجاب : اسألوهم..!

سألنا صاحب إحدى المحلات تلك فقال : كل شيء موجود..

- قلنا: العطور..؟

● قـال : مـوجـودة ، وراح يعـدد لنا أنواعـهـا ويحـدد مـسـمـيـات شركاتها..

- قلنا: والأسعار ..؟

● قال : كل شيء بثمنه ..

- مثلاً..؟

- وبدأ يحـدد أسعارها ، فكانت الأسعار مناسبة جداً مقارنة مع أسعـارها الحـقـيـقـيـة في البلدان الأخـرى ، ولكننا رغم ذلك بدأنا، كالعادة، محاولاتنا لتخفيض تلك الأسعار، وقد استجاب الرجل أكثر مما توقعنا ..!

شخصياً أنفقت الكثير على العطور هذه ، فهي فرصة قد لا تعوض ، والمهم أنها من النوعيات الجيدة التي تحمل ماركات مشهورة جداً ..

وبينما كنت منهمكاً في شراء العطور تلك كان زميل لي قد دخل في ركن صغير داخل المحل لاختيار البدلة التي تناسبه، وهي مصنوعة في انكلترا وقد كتب عليها ذلك بالفعل.

أنهينا تسوقنا ، وعدنا إلى الفندق فرحين جداً لأننا قد حصلنا على بضائع أجنبية بأسعار زهيدة جداً قياساً بالسوق العالمية، ولأن الأمر يبدو مثل الفرصة الذهبية التي نُسميها " اللقطة " رحنا نتباهى أمام إخوتنا العاملين في سفارتنا عندما عدنا إلى دلهي على أساس أننا قد عرفنا مخابئ الأسواق الهندية أكثر مما يعرفون هم المتواجدون فيها منذ زمن ..!

ضحك الأخوان كثيراً وقال أحدهم: لقد وقعتم في المصيدة..!

● أية مصيدة..؟!

- مصيدة الخديعة ، فهذه التي اشتريتموها لا هي مستوردة ولا هم يحزنون ، إنها بضائع هندية ، بل مصنوعة في دهاليز الهند وليس في شركاتها الكبيرة ، إنهم يشترون علباً فارغة لعطور ثمينة ثم يملأونها بعطور يصنعونها في البيوت أو في تلك الدهاليز ويبيعونها بعد ذلك على أنها عطور مستوردة..! وكذلك الحال مع الملابس التي يضعون عليها ماركات أرقى الشركات العالمية، لكنها في الحقيقة ملابس هندية القماش والخياطة..!

عدت سريعاً إلى غرفتي ، وفتحت واحدة من تلك العطور لأشمها فصعقت ، إنها تحمل ماركة " كريستيان ديور " العالمية الشهيرة، لكن الذي في داخلها لا علاقة له أبداً إلا بالبخور الهندية المعروفة..!

بلعت الطعم إذاً ، فقد اصطادوني كأي مغفل ، وعندها فقط عرفت معنى تلك الـ (نعم) التي قالها لي ذلك الهندي عندما سعى

على ما يبدو إلى الانتقام من شخص أراد أن ينتقص أو يقلل من شأن صناعاتهم عبر البحث عن صناعات أو منتجات أجنبية في داخل السوق الهندية الزاخرة والعامرة بكل شيء..!

مزحة يرفضها الهنود..

كانت مهمتنا في الهند تنتهي عند مدينة اسمها "سيليكوري" وتقع في أقصى الجنوب..

وفي الطائرة التي أقلتنا من كلكتا اختار مرافقنا " البدين" أن يجلس إلى جواري ، لأن الجلوس كان حراً - بدون أرقام - خلافاً لما هو الحال في الطائرات الأخرى .

ابتسم زملائي في الوفد وعلق أحدهم قائلاً بأن صاحبنا سيجعلني "وسادة له" إلى حين الوصول ، وربما كان التعليق ذاك هو الذي دفعني إلى أن أشترط عليه بأن لا ينام ما دام هو في جواري ، ضحك صديقنا بصوت عالٍ وقال : اطمئن لن، أُزعجك بشخيري ولكن ربما سأُزعجك بحديث لا ينتهي عن "سيليكوري"، المدينة التي نقصدها.

وبدأ يتحدث عن سيليكوري.. موقعها، مساحتها، سكانها، وأشياء أخرى من هذا القبيل، غير أن كل الذي قاله ما هو إلا معلومات سطحية عامة ليس فيها ما يشد المرء الذي يتطلع إلى الغور في موضوعات من نوع آخر، قاطعته فقلت:

- وماذا يأكلون في سيليكوري .. ؟!

فاجأه السؤال وعده غريباً فقال :

- ماذا يأكلون ..يأكلون مثلنا ، ثم ضحك.

- أعني، هل يأكلون لحوم البشر.. ؟!

استدار نحوي بغضب وكأن السؤال قد استفزه وقال:

- من قال ذلك.. ؟

- سؤال، مجرد سؤال..

- سؤال غريب حقاً، أتراك تعتقد أننا ذاهبون إلى مجاهل غابات أفريقيا..؟!

• أبداً، فالشعوب تأكل ما تشاء، وهناك من يفضل لحوم البشر، وخصوصاً في تلك المناطق القصية، وسيليكوري مدينة قصية على ما أعتقد لأن أحدهم أخبرني في المطار بأننا سنذهب إلى نهاية العالم ..!

ضحك مرة أخرى وكأنه قد اكتشف دوافع تساؤلي وقال : ليس في ما تقوله أي شيء من الحقيقة ، أما الذي أخبرك بأن سيليكوري هي نهاية العالم فهو رجل لا يفقه شيئاً أبداً في الجغرافيا.

• لا عليك، فأنا أمازحك فقط وغايتي هي أن لا تنام، لا أكثر ولا أقل.

- بالمناسبة، ماذا تأكُلون أنتم في بلدكم، أعني ما هي أكلتكم المفضلة.. ؟

قُلت بلا تردد وكأنني أنتظر هذه اللحظة :

• إنها "الباجة"..

- وما هي " الباجة " هذه .. ؟

• وهل أنت مصر على معرفة تفاصيل هذه الأكلة ..؟

- بكل تأكيد..

• ضحكتُ في سري لأنه لا يعلم ما الذي أخبئه له وقلت : " الباجة " يا عزيزي نوعان ، النوع الأول ويستخدم فيه رأس الخروف وأطرافه حيث تنظف جيداً ثم تسلق بطريقة معينة لتأكلها فيما بعد بنهم وشهية مفتوحة .

شاهدت الامتعاض وقد بان على وجهه، فهو إنسان نباتي لا يأكل اللحوم أصلاً، لكنه مع ذلك راح يبحث عن تفاصيل أُخرى لـ " الباجة "

هذه ربما بدافع الفضول أو حُب الاطلاع أو المعرفة ثم تساءل : وماذا عن النوع الثاني.. ؟

- النوع الثاني رأس وأطراف أيضاً ولكن ليس للخروف ..

- قال بشيء من الانبهار: لمن إذن..؟!

- إنها رأس وأطراف البقرة وهي....

وقبل أن أكمل ، نهض صاحبي غاضباً وتمتم بكلمات لم أفهمها ثم غادر مقعده واتجه إلى مؤخرة الطائرة وسط ذهول واستغراب زملائي في الوفد الذين لاحظوا ردة فعله، فضحكوا كثيراً فيما بعد وكأنهم قد عرفوا " المقلب " الذي اختاره صاحبنا لنفسه منذ اللحظة التي أختار فيها أن يجلس إلى جانبي في الطائرة .. فقد حرمته من النوم أولاً ثم أغضبته لأنني أخبرته بأنني أفضل أكل رأس البقرة ..!

وهكذا صار صاحبنا يتحاشاني تماماً ، لا بل إنه رفض التحدث معي حتى اللحظة الأخيرة، لحظة مغادرتنا عندما أخبرته بأن كل الذي قُلته في الطائرة إنما هو مزاح ليس أكثر لأننا لا نأكل أبداً رأس أمه المقدسة ..!

مدينة الأمطار التي لا تتوقف..

هبطت طائرتنا في مطار سيليكوري ، والمطار هذا ليس أكثر من بناية قديمة ، هو أشبه بمطار لوحدة عسكرية، وربما كان كذلك فعلاً قبل أن يتحول إلى مطار مدني .

المهم أن الجو كان ممطراً لحظة وصولنا ، والأمطار كانت غزيرة ، غير أن غزارة الأمطار تلك لم تؤثر على سير العمل في تلك المزارع التي مررنا بها في الطريق ، كان الرجال والنساء منهمكين في أعمالهم ، والأطفال هم الذين يقودون (الفيلة) المحملة بالبضائع على ظهورها بينما تتدلى من خراطيمها أخشاب من جذوع الأشجار ، إنه منظر غير مألوف أبداً وربما لن تراه إلا في الهند..

أما الطرقات وجوانبها فقد كانت تبدو موحلة بمياه تلك الأمطار ، لا بل إن مناطق واسعة ظهرت وكأنها بحيرات صغيرة من صنع مياه تلك الأمطار ، وعندما تصل إلى مركز المدينة ستكتشف أن سيليكوري إنما هي قرية أكثر منها مدينة، أو لنقل إنها مدينة صغيرة ذات ملامح قروية، غير أن فيها من جمال الطبيعة الأخاذ ما يجعلك تنجذب إليها كثيراً، فهي مدينة رائعة لا أثر فيها لدخان المصانع أو أنقاضها ، فيها أراضٍ منبسطة خضراء وأنهار منسابة كالثعابين التي ترقص هُناك على مزمار الحاوي ، ولو أردت أن تستمتع فعلاً بهذه المدينة فان عليك أن تغادر وسطها وتتجه إلى تلك الأطراف التي تغطيها مزارع خضراء داكنة تتراقص فوقها طيور بأشكال وأنواع ربما لم تر مثلها من قبل. ولأننا سنكون هنا ضيوف هذه المدينة فقد راح أهلها يحتفون بنا بطرقهم الخاصة، حيث خرجت تلميذات إحدى المدارس لينثرن الورود على رؤوس أعضاء وفدنا، بينما بدأت إحدى

الفرق الفنية بتقديم لوحات راقصة عند بوابة الفندق البسيط الذي سنسكن فيه، وهو أفضل فندق في المدينة..

كل ذلك والأمطار تهطل بطريقة مزعجة ومتواصلة دون توقف.. سألت أحدهم هناك عن احتمال توقف المطر فكان جوابه كالصاعقة: إنها تمطر منذ شهرين دون توقف..!

قُلت: شهرين..؟!

أجاب: نعم، شهرين بالتمام والكمال..!

قُلت: إن ذلك يعني أن مهمة وفدنا الرياضي الكروي ستتعثر، لأن الملعب الرئيسي في المدينة لا بد وأن يكون قد غرق بمياه هذه الأمطار التي لا تتوقف..!

طلبت مع بعض أعضاء الوفد التوجه فوراً إلى ذلك الملعب لنرى مدى إمكانية اللعب فيه، وفعلاً خرجنا ثم نزلنا إلى أرض الملعب للحظات فقط، مجرد لحظات لنعود منه بملابس مبتلة تماما.. المهم أن المشرف على المباراة المقررة تلك رفض قبول فكرة تأجيل المباراة التي ستقام في اليوم التالي على أمل احتمال توقف المطر..!

أي توقف هذا الذي يتحدث عنه، إنهم يقولون إن المطر لم ينقطع منذ شهرين، فهل سينقطع غداً.. ؟!

ليس في اليد حيلة إذن ، فالقرار يعود في النهاية إلى ذلك المشرف المتزمت ، غير أن أمراً ما قد حدث فعلاً في اليوم التالي، لم يكن وارداً في الذهن ابداً، ليس في أذهاننا نحن فقط بل وفي أذهان أهل المدينة أيضاً ..

فقُبيل تلك المباراة بساعة واحدة فقط توقف المطر فجأة وانقشعت الغيوم لتسطع الشمس وسط دهشة الجميع فكان أن جرت المباراة في

جو غـايـة فـي الجـمـال والروعـة.. ثم، وبمجـرد أن انتـهت تلـك المبـاراة، عادت الغيوم وعاد المطر ليهطل ويهطل..!

هكذا احـتـفت تلك المدينة بقـدومنا مـثلما احـتـفت سمـاؤها أيضـاً عندما أزاحت الغيوم عنها لتفسح المجال لنا واسعاً لخوض تلك المباراة في جو مشمس غاية في المتعة .

وفـي اليوم الـتـالي غادرنا المديـنة وسط حفاوة بـالـغة جعلتنـا نخرج منهـا بـانطبـاعـات لا تنسى ، انطبـاعـات عن أهلهـا الطيـبين ، وسمـائهـا الممطرة ، ورطوبتـهـا الشديدة ، ومـسـاحـاتهـا الخضـراء ، وأفـيالهـا التـي تجوب الشـوارع، ثم بالأعلام الـتي كانوا قـد استـقبلونا بهـا، وهـي أعـلام كانت قد تغيرت في بلدنا قبل نحو نصف قرن..!

قرد يُطاردنا في بنغلور ... !!

ليس هناك أجمل من هذه المدينة، ربما لأنها أقرب ما تكون إلى لوحة يطغى عليها اللون الأخضر الذي يفتح النفس ويبعث على البهجة والانشراح ، اختارتها العديد من الشركات السياحية لتكون منتجعاً للباحثين عن جمال الطبيعة وخصوصاً من السياح الأمريكان والفرنسيين الذين يملأون فنادقها ويمرحون في حدائقها وتتعالى صيحاتهم المصحوبة بشيء من الصخب والضجيج في شوارعها وأزقتها .

إنها مدينة "بنغلور" إحدى أجمل المدن الهندية، بل والآسيوية كلها. هي أشبه بغابة من الأشجار العملاقة التي تنتشر في كل مكان ، هي غابة من سيقان خضر ترتفع كأنها تغازل السحاب .. أما عندما تتساقط الأمطار، وما أكثرها هنا، فانك ستكون أمام مشهد لا يمكن أن يُمحى من الذاكرة أبداً.

فالمدينة تبدو وكأنها حورية تغسل بماء السماء ، فمثلما تلتمع وجنتا المرأة بعد الغسيل ترى أوراق الأشجار تسطع وتزداد لمعاناً وتزهو بلون داكن الخضرة لا يشبه غيره على الإطلاق .

وإذا ما كانت بنغلور قد عرفت بروعة وجمال طبيعتها الساحرة والخلابة ، فإنها قد عُرفت أيضاً بأنها مدينة القرود التي تتدلى كما أوراق الشجر من أعلى تلك الأغصان التي تمتد إلى حيث نوافذ الغرف في الفندق الذي كنا نسكن فيه شأنه في ذلك شأن معظم أو ربما جميع الفنادق الأخرى في المدنية .

والقرود هنا لا تشبه الإنسان في هيئته فقط، بل وفي تفاصيل حياتية أخرى تدعو لشيء من الدهشة حقاً ، ولكي تعرفون مقصدي دعوني أبدأ الحكاية من أولها ..

كنا ثلاثة زملاء نلعب الورق في تلك الغرفة المطلة على الحديقة الرئيسة لبوابة الفندق، عصام ووعد وأنا، ولأن عصام كان يدخن السجائر بشراهة اشترطنا عليه أن يجلس إلى جوار النافذة المفتوحة تخلصاً من دخان سجائره التي لا تنتهي.. كنا في الطابق الثالث من الفندق، ومع ذلك فإن أغصان الأشجار العملاقة كانت تتدلى قرب تلك النافذة التي جلس عصام إلى جوارها، ولم نكن لنستغرب أبداً أن يخرج إلينا قرد من بين تلك الأغصان، فالقردة هنا تزورك أينما كنت ودون استئذان بحيث تبدو وكأنها ترتبط معك بعلاقات حميمة جداً، شئت ذلك أم أبيت..!

وفعلاً، وأثناء انهماكنا في لعب الورق خرج علينا ذلك القرد الذي يميل إلى اللون البني الداكن وكأنه رجل عجوز.

اقترب القرد كثيراً وجلس عند حافة النافذة خلف المشبك الحديدي.. لم نأبه له في بادئ الأمر لأنه كان يجلس هادئاً يتفرج فقط، تماماً مثلما يجلس إلى جوارك أي صديق وهو يتابع لعبك وينشغل معك بأوراقك..!

وبعد أن اطمئن القرد إلينا بدأ يمد يده من بين المشبك الحديدي محاولاً انتزاع السيجارة من فم عصام.. لم يفعل عصام شيئاً بل مال برأسه جانباً ليبعد سيجارته عن يد القرد، غير أن القرد راح يتمادى بمحاولة خطف السيجارة مرة ثانية وثالثة وعصام يتجاهله ويميل برأسه جانباً في كل مرة وهو منشغل بأوراقه التي بين يديه .. ألح القرد كثيراً فتململ عصام بشيء من الانزعاج لكنه ظل هادئاً ومنشغلاً أيضاً بأوراقه إلى أن وجد نفسه مهزوماً فانفجر غاضباً وصارخاً في وجه القرد قبل أن يضربه على يده ثم يبصق في وجهه

لتقوم الدنيا ولا تقعد عند ذلك القرد الذي استشاط غضباً وهو يمد كلتا يديه من بين حديد النافذة وكأنه يحاول الإمساك بعصام.. أغلقنا النافذة، غير أن القرد ظل جالساً عندها وهو يضرب بكلتا يديه وكأنه يدعو عصام للمنازلة أخذاً للثأر أو انتقاماً من احتقاره له والبصق في وجهه..!

تركنا الغرفة دون أن ندري ما الذي ينتظرنا، وبمجرد أن نزلنا إلى الطابق الأرضي في طريقنا إلى المطعم الخاص بالفندق انطلق ذلك القرد من إحدى الزوايا ليركض خلفنا وكأنه يريد العراك معنا.. توزعنا في ثلاثة اتجاهات فاختار أن يركض خلف عصام تحديداً، عصام يركض بوزنه الثقيل وكرشه المتدلي والقرد يركض وراءه، عصام يصرخ ويستنجد والقرد يصرخ وراءه أيضاً وكأنه يسب ويشتم في بهو الفندق الذي تحول إلى ساحة منازلة غير متكافئة بين رجل مرعوب وقرد جاء لينتقم..!

وعلى الرغم من أن الأمر لم يستغرق أكثر من دقائق قليلة إلا أنه بدا وكأنه مشهد مدهش وساخر في الوقت نفسه ، مشهد يثير الاستغراب مثلما يثير الضحك أيضاً لمنظر عصام وهو يركض بكرشه الثقيل والقرد الهائج يتبعه..!

حضر رجال الشرطة بسرعة وفرضوا طوقاً حول القرد ثم ألقوا القبض عليه وأخرجوه عنوة ، أما الأشد غرابة فهو أن القرد كان يرفض أن يخرج ، لا بل كان يلتفت إلى الوراء وكأنه يوجه صرخاته إلى عصام ليهدده أو ربما كان يقول له انتظر يا جبان..!

قصصنا الحكاية من أولها لرجال الفندق ، وإذا بأحدهم ينصحنا ليس بمغادرة الفندق فقط بل والمدينة كلها وعلى الفور..!

عجباً، هل يُعقل هذا .. قرد، مجرد قرد يفعل بنا كل ذلك، ولماذا، لأن أحدنا بصق في وجهه.. ؟!

المسألة مسألة تحدٍ إذاً، هذا ما قاله عصام، وأصر على البقاء في الفندق وعدم مغادرة المدينة إلى حين الانتهاء من المهمة التي جئنا من أجلها.

قلنا ذلك لمدير الفندق وشرحنا له الأمر فاستجاب لطلبنا وقال سنحاول أن نوفر لكم حماية ، أجل حماية، بشرط أن لا تخرجوا وحدكم أبداً لأن بإمكان هذا النوع من القردة أن يتسبب في مقتل أحدكم لأنه ينقض على الرقبة تحديداً ليخنق فريسته بسرعة عجيبة .

نعم ، هذا ما قاله مدير الفندق قبل أن يطلب من أحدهم إحضار رجال الشرطة إلى الفندق من جديد لمنع القردة من الدخول إليه في هذه الفترة على أقل تقدير ، كما طلبوا منا ومن نزلاء الفندق الآخرين أيضاً عدم فتح النوافذ أبداً ، وكانت التعليمات صارمة جداً بهذا الشأن بحيث أصبحنا وكأننا في معتقل وليس في فندق ..!

ولكن ما هو أصل الموضوع، كيف يمكن أن يحدث كل ذلك..؟

أجابني مدير الفندق بالقول " إن القرد الذي ضربه صاحبكم هو أشبه بشيخ قبيلة، وإنه يشعر الآن بالإهانة ويسعى للانتقام هو وأفراد قبيلته أيضاً "..!

هل يعقل هذا يا سادة يا كرام، قرد " شيخ " قبيلة ويريد الانتقام هو وأفراد قبيلته ولماذا؟، لأنه أُهين أو تعرض للإهانة..؟!

المهم، بقينا في المعتقل، أقصد في الفندق، وعندما كنا نريد

الخـروج يأتون إلينـا بسيـارة إلى البـوابة الداخليـة للفنـدق، والشـرطة تحـرسـنا، والأهم هو أننا كنـا نلمح (صـاحـبنا) القـرد وهو يقـفـز من شجـرة إلى أخرى بمجرد رؤية عـصام تحديـداً وكأنه يتحـداه أو يدعوه لمواجهته إذا كان هو رجلا بحق..!

تـرى من يصـدق هذه الحكاية، من يصـدق أننا أمضـينا ليلتين دون نوم لأننا كنا نشعر برعب حقيقي وخصوصا أثناء الليل..!

وأخـيراً غـادرنا الفندق إلى المطار، وتنفسنا الصعـداء ونحن ندخل الطائرة قبل أن يصـرخ وعد من خلـف عصـام ليقول: "عـصـام ، انتبـه، فـالقرد داخـل الطائرة".. وكانت مزحـة ثقيلة جـداً لأنها كـادت تصيب عصام بالسكتة القلبية ..!

مفارقات لا تنتهي ..

وبعد، فإن في الهند مفارقات لا تنتهي..!

• فهناك ، مثلاً ،عالم واسع من الشحاذين الذين يملأون المدن والشوارع، هناك أجساد ليست أكثر من هياكل عظمية، وهناك جوع ومرض و فاقة وذل.. غير أن هناك أيضاً عالماً آخر من أناس شبعوا إلى حد التخمة، وأجساداً مترهلة، وغنى فاحشاً، ووجوهاً نضرة تنبض بالعافية..

• هناك مدن مبنية من الصفيح والطين والخشخاش ، لكنك تجد أيضاً مدناً عامرة بالبنايات الضخمة والمنشآت الحديثة والشوارع الفارهة والحدائق والمنتزهات الجميلة التي تنط فوق أشجارها القرود بمختلف أحجامها و أشكالها وهي تتدلى من أغصانها في حين يجلس تحت بعض تلك الأشجار حواة يزمرون لثعابين تختفي داخل صناديق صغيرة ثم تنهض شيئاً فشيئاً لتتراقص شاقولياً على أنغام تلك المزامير .. وبالمناسبة فإن هناك من يقول إن الشعبان لا يسمع وإن حركته تلك إنما تتحدد تدريبياً في ضوء حركة المزمار في يد الحاوي وليس على صوته، وهي حركة غالباً ما تكون لولبية يتدرب عليها الثعبان تدريجياً .

• ومن بين المفارقات أيضاً ذلك المنظر الغريب الذي يصادفك في الشارع ، فإلى جانب تلك الهياكل الضخمة من المصانع الكبيرة التي تصنع كل شيء في الهند تجد أيضاً مجموعة من الرجال الحفاة البائسين وهم يرصفون الشارع بأيديهم ويكسونه بمادة الزفت بأيديهم أيضاً وبطريقة بدائية جداً.

• وفي الوقت الذي تشير فيه الأرقام إلى أن أعداداً كبيرة من الهنود غير متعلمين ولا يجيدون القراءة والكتابة، فإن أعداد المطبوعات من الصحف والمجلات وإصدارات الكتب تذهلك حقاً، أضف إلى ذلك أن بعض الصحف توزع ملايين النسخ يومياً.

• وإذا كان بعض الهنود لا يقرأون، إلا فإنهم ينظرون ليشاهدوا ذلك السيل الجارف من الأفلام الهندية التي (تهطل) على دور السينما التي لا تحصى هناك مثلما تهطل الأمطار عندهم.. فقد كشفت إحدى الإحصائيات بأن الهند تنتج أكثر من (٤٠٠) فيلم سينمائي في العام الواحد، أي أنها تنتج أكثر من فيلم في اليوم الواحد، و جميعها أو معظمها قصص وحكايات للنحيب، والنحيب فقط..!

• وهناك في أجزاء من الهند أيضاً بقايا للنظام الأمومي (نسبة إلى إلام) والذي كان سائداً بشكل واسع هناك ، حيث السلطة للمرأة التي تتحكم بزوجها وأبنائها داخل البيت وخارجه وهي التي تتولى مهمة إعالتهم بل وإليها ينسب أطفالها .. وهناك أيضاً نظم أخرى تكون المرأة فيها ليست أكثر من عبد مطيع حيث يحرم عليها الجلوس بحضور زوجها مثلما يحرم عليها أيضاً دخول المعابد التي لا يدخلها غير الذكور ، لا بل إن هناك قبائل كانت وإلى وقت قريب تقيد المرأة بالحبال ثم ترميها في النار لتحرق مع جثة زوجها يوم وفاته لأن المرأة الأرملة عندهم شريرة ومنبوذة ووجودها يسبب الكوارث والمحن، وتلك من بين المفاهيم التي استغلتها بعض الأحزاب والقوى السياسية المناهضة لحزب المؤتمر الهندي وبالذات لرئيسة الوزراء السابقة انديرا غاندي حيث أشاعوا بين عامة الناس يومها بأن الفيضانات والكوارث

والجوع والأمـراض التي تعاني منهـا الهند إنما هي بسبـب وجود انديرا غـاندي على رأس السلطة، ذلك لأنهـا أرملة ، والأرملة شـريـرة ومنبـوذة وتجلب المصائب ..!

• وإذا كان النظام الأمومي ذاك قد اندثر اليـوم باستثناءات قليلة، فإن بعضاً من مفاهيمـه ما زال قائماً حتى اليوم ، والطريف أن ما بقي من مفاهيمه تلك هو ما يخدم الرجل وليس المرأة ، فعلى سبيل المثال تجـد أن المرأة في الهند وبسبب من بقـايا ذلـك النظام الأمـومي، هي التي تدفع المهـر لزوجـهـا حـتى اليـوم، وإن قـيـمـة المهـر هذا تتـحـدد من خـلال أهميـة الرجل وشخـصيـته ومكانتـه وثقافـته وطبـقتـه وما شـابه ذلك .

• ومع أن الشائع في الهند أن المرأة هي من حصة بيـتها وأطفالها، وهو أمر جعلهـا حبيسة الدار عند بعض القبـائل التي ترفض تماماً أية محـاولة لتعليمهـا ولو بالحدود الدنيـا ، إلا أنها استطاعت أن تقـتحم العديد من المجالات وأصبحت رديفـة للرجل في كل شيء ، في السياسة والأدب والطب والعلوم والهندسـة وغـيـرها مـن المجالات التـي أبدعت فيـها حقاً ، بل وتميـزت فيها كثيراً لتـترك في الأذهان صورة طيـبة عن المرأة الهندية الـتي تحرص على أن تجـعل من دورها في البـيت مكمـلاً لدورها خارجه وهي تبني نهضة بلدها الكبير .

• وإذا مـا كـانت مـلامح الانكسـار أو الخنـوع هي التي تميـز سمـات بعض الـوجـوه في الـهند بسـبب من تلك البـصـمـات التـي خلفـهـا الاستـعـمار المغـولي ومن ثم الانكليـزي طوال أكثـر من ستـة قرون فـإن الهدوء والتـسامح والصـدق هي السمـات الأخرى التي تميز الشـخصـية الهندية ..

تايلانـد ...

معـابد لا تُحصـى ..

.. ودور مساج لا حدود لها!!

نحن الآن في تايلاند ، وفي بانكوك على وجه التحديد .. المدينة مزدحمة جداً والرطوبة عالية ، وإذا ما غادرت غرفتك المكيفة في الفندق فإن عليك أن تدخل الحمام فور عودتك إليها لأنك باختصار شديد ستشعر بملابسك وقد التصقت بجسمك وإن يدك بالذات بدت وكأنها قد غمرت بسائل لزج ..!

لا أحد يرغب في الخروج من الفندق المكيف ولا أحد أيضاً يستطيع مقاومة إغراء الخروج إلى الشارع التايلاندي المليء بالحركة والحافل بكل ما هو غريب وجميل بالنسبة للسائح، أي سائح ومن أي بلد كان.

أنت الآن في مدينة العبادة، وأرجو أن لا تستغرب، فهي فعلاً مدينة العبادة مثلما هي أيضاً مدينة لشيء آخر، ربما هو الذي في ذهنك.. وقبل أن أحدثك عن ذلك الشيء سأحدثك أولاً عن العبادة هنا في تايلاند.

فبانكوك ، وأغلب الظن المدن الأخرى أيضاً ، تعج بالمعابد ، وأغلب الناس هنا يمارسون طقوس الديانة البوذية ، فبوذا هو معبودهم أو قل هو إنسانهم المقدس ، صاحب الوصايا المقدسة على حد قول أحد الكهنة الذي راح يشرح لنا موضحاً ليقول : إنكم تعتقدون أننا نعبد بوذا وهذا خطأ، فبوذا إنسان مثلنا لكنه إنسان مقدس ولم يقل عن نفسه أبداً بأنه إله .

المهم أن بوذا الذي يقدسون له معابد وتماثيل عديدة في هذه المدينة ، وتماثيله مصنوعة في الغالب من النحاس، وهم يجعلونه في التماثيل تلك يتربع فوق قاعدة ويضعون فوق رأسه ثعباناً ، والثعبان هذا يرمز إلى الحماية عندهم وأيضاً إلى الماء والخير مثلما يقولون.

وأنت تطوف في المدنية هذه سيصادفك معبد آخر خصص لأولئك الذين يقدسون "العضو الذكري" ..!

والغريب أن المعبد هذا يكتظ بالعديد من النساء اللواتي يمارسن عنده طقوساً غريبة وهن يحملن شموعاً وأشياء أخرى لم أتبينها جيداً ، وبعد أن تسأل تكتشف بأنهن نساء عاقرات ، وأنهن يأملن في الخلاص من العقم من خلال هذا المعبد، حيث يرفعن أيديهن ويلهجن بكلمات غير مفهومة وهن في خشوع تام..!

والأغرب أنهم هنا يقولون أن أعداداً كبيرة من النساء العاقرات استطعن بهذه الطريقة الإنجاب فعلاً في ما بعد.. أما كيف أنجبن وما هي السبل أو الوسائل التي عولجن بها ، فهذا ما لم يفصحوا به لأحد ، المهم أنهن أنجبن والسلام..!

ولأن المعابد هنا كثيرة فإن كهنتها كثر أيضاً ، والكهنة البوذيون يرتدون في الغالب بذلة صفراء اللون أو أقرب إلى اللون البرتقالي وتشبه الروب ورؤوسهم حليقة ، وعندما تسير في الشارع تصادفك أعداد كبيرة منهم وهم يحملون أواني صغيرة فيها " ماء مقدس " يرشونه على الأرض بدافع الدعوة إلى التبرع لهم أو لمعابدهم ..

ويبدو أن الناس هنا يتجاوبون كثيراً مع دعوة الكهنة هذه للتبرع، فقد لاحظت أن أعداداً كبيرة منهم يتبرعون بالأموال ، ولا يخفى طبعاً أن الأموال هذه ستؤول فيما بعد للكاهن الذي لا يمتلك مصدراً للعيش غير الهبات هذه ..

وعلى الرغم من أن صديقنا الذي يعمل مديراً لأحد مكاتب الخطوط الجوية في بانكوك قال أخبرنا أنه بالإمكان الدخول إلى أي معبد لغرض الاطلاع إذا ما رغبنا في ذلك، إلا أنني رفضت ذلك

بإصرار، فالهاجس الذي أفزعني في ذلك المعبد الهندي الذي حدثتكم عنه ما زال حاضراً في ذهني، ثم إن منظر الكهنة بملابسهم الصفراء تلك ورؤوسهم الحليقة لا يدعو للاطمئنان أبداً. فما لي وهذه المجازفة التي قد لا تنتهي بمثل ما انتهت إليه مجازفتنا الأولى تلك خصوصاً وأن أعداداً كبيرة من الناس كانت تجلس عند بوابات تلك المعابد لأسباب غير واضحة..!

أما أكثر ما أثار استغرابي في الطقوس والعبادات هنا فهي تلك التي تقدس " فرج " المرأة..!

ولأن الدخول إلى مثل هذا المعبد ليس سهلاً، فقد حدثني صاحبي عن بعض التفاصيل التي تخص هذه الطائفة...

كنا نمر من أمام بناية نقشت على جدرانها صور غير واضحة المعالم وكتبت عليها كلمات لا أفهمها وبدت الألوان كلها وقد استخدمت في رسومها .

يقول صاحبي: إن أفراد هذه الطائفة يذهبون إلى الاعتقاد بأن وجود الإنسان إنما يعود إلى "فرج "المرأة الذي أخرجه إلى الدنيا..!

وبقدر غرابة هذه الفلسفة، فإن الغرابة تكمن أيضاً في تلك الطقوس التي يمارسونها داخل ذلك المعبد.

ومع أن صاحبي لم يرَ شيئاً بعينيه إلا أنه كان قد سمع من الآخرين بأن الطائفة تلك تنتخب في العادة امرأة بمواصفات معينة ليجعلوها معبودة لهم ويقدسونها داخل المعبد الذي سيكون عليها أن تقيم داخله طوال المدة التي تكون فيها مقدسة.

ومن هذا الكلام تفهم أن المرأة هذه لن تكون مقدسة طوال حياتها و إنما لمدة معينة فقط ثم تعود بعدها إلى حياتها الطبيعية.

والمدة هذه في الغالب هي التي تمثل مرحلة الشباب والحيوية عندها لأن المفروض في المرأة المقدسة هذه أن تكون نموذجاً للمرأة القادرة على الإنجاب.. أما كيف يقدسونها فالمعلومات هنا تشير إلى أنهم يلبسونها أثمن الحلي ويجلسونها في مقعد مخصص لها في مواجهة طوابير من الرجال الذين يمرون من أمامها بكل " خشوع "..!

أما كيف تمر تلك الطوابير وماهي تفاصيل الطقوس فيها فهذا ما لا أستطيع أن أجزم به أبداً لأنني باختصار لم أكن ضمن تلك الطوابير بل ولم أر شيئاً أبداً من كل هذا الذي قُلته، وكل ما قلته هو فقط رواية لما سمعته من حكايات.

وتعج بـ"بيوت المساج" أيضاً .. !!

وإذا ما كانت بانكوك هي مدينة للعبادة ، فإنها في نظر الكثيرين مدينة لما نسميه نحن "الدعارة"..!

فالدعارة عند البعض هنا تمارس بأسلوب مبتكر..!

إنهم لا يسمونها دعارة ، وإنما "مساج" أو تدليك أو شيء من هذا القبيل..

وعندما تهم بالخروج من الفندق سيقترب منك أكثر من رجل ، والرجال هنا "مربعون" في الغالب حيث أنهم قصار القامة ويميلون إلى البدانة ، والبعض من هؤلاء يطلقون على أنفسهم صفة "المرشد السياحي" ، أما الذي يرشدونك إليه فلا علاقة له بالسياحة أبداً ، إنهم يرشدونك إلى أمر آخر يعرفون جيداً أنه هو بالضبط ما يبحث عنه العديد من السياح القادمين إلى تايلاند..!

فبعد انحناءة تقصم الظهر من تلك الانحناءات المألوفة في بلدان جنوب شرق آسيا يقترب منك ذلك "المرشد السياحي" ليهمس في أذنك..

في البدء لا تفهمه جيداً ، فطريقة النطق بالإنكليزية عندهم فيها شيء من الغرابة..

ولكن لا بأس ، فهو مستعد لأن يعيدها عليك ألف مرة وبمختلف وسائل الإيضاح..!

ومن بين وسائل الإيضاح تلك "ألبوم" من الصور جميعها لفتيات جميلات وبأعمار مختلفة، ما عليك سوى أن تؤشر بإصبعك نحو الصورة التي تختارها ليقودك هو بكل أدب إلى حيث تنتظرك تلك الفتاة..!

أمـا إذا رغبت أن تكون "حـشمـاً" وفـوق الشبـهات وبـادرت في زجـره ، فلا تتوقع أبداً أنه سينفض عنك أو ينزعج أو يخاف بل سيستمر في محاولة إقناعك ويبرز لك "ألبوماً" آخر يحمل صوراً أخرى ولكن لفتيان هذه المرة ، إذ عسى أن يعجبك ذلك..!

والمؤكد هنا أنك ستنتفض وتطرده هذه المرة ، لكنه لا يغرب عنك بل هو يمسك بذراعك وكأنه يخاف أن "تملص" منه أو أن يخطفك منه " مرشد سياحي " آخر .. ! وبين كلمة ناعمة منه وكلمة غاضبة منك يصل الأمر إلى طريق مسدود ، أعني أنه يصل إلى قناعة كاملة بأن لا جدوى منك ، وهنا ينسحب قليلاً إلى الوراء ليرفع قميصه عن حزام بنطاله ويعرض عليك أمراً لا تتوقعه أبداً ..!

أما الذي حدث بعد ذلك فإن صاحبي قد استشاط غضباً وانحنى ليخلع حذاءه من قدمه ويرميها نحو ذلك الرجل المربع الذي اندهش بذعر ثم أطلق ساقيه للريح ..!

وإذا ما كانت بيوت التدليك في مدينة كوالالمبور في ماليزيا هي التي أثارت انتباهي من قبل، فإن ما أراه الآن في بانكوك لهو أمر يثير الاستغراب حقاً..!

فبين بيت وآخر من بيوت التدليك هذه هناك بيت آخر للتدليك أيضاً، صحيح أنها ليست كلها من النوع الذي نتحدث عنه لكن الصحيح أيضاً هو أنها تنتشر هنا بطريقة واسعة جداً، لا بل قل إن عددها يكاد يفوق أعداد المعابد الكثيرة المنتشرة في هذه المدينة، وهناك من يقول إن تنامي أعداد هذه البيوت جعلها تعيش حالة من الكساد وفقاً للعرض والطلب.. فعلى الرغم من كثرة السياح الراغبين

في زيارة مثل تلك البيوت إلا أن أعدادها الكبيرة جعلت المنافسة بينها تشتد ليكون ذلك بالطبع على حساب معدلات أرباحها...

ومع ذلك فإن الأرباح تلك أكثر من جيدة... والدليل هذا الإقبال الواسع على تأسيس هذه البيوت إلى جانب ما تتقاضاه المرأة العاملة فيها من أجور... فهي تتقاضى في اليوم الواحد مثلاً ما يعادل اجرة شهر كامل لإمرأة أخرى تعمل بمعدل (١٢ - ١٤) ساعة في اليوم الواحد في معمل لصناعة الأنسجة..!

وذلك أيضاً يعتمد على نشاط الفتاة وجاذبيتها ، ففي حالات أخرى يمكن لفتاة التدليك أن تخرج في يوم واحد بحصيلة تعادل أجرة سنة كاملة لفتاة أخرى تعمل في مجال آخر ..! أما كيف ، فهذا سهل ، عليها فقط أن تكون في غاية اللطف والتسامح والتجاوب مع ذلك الرجل القادم من أقصى الغرب بجيوب ممتلئة وهو يجوب الشرق بحثاً عن المتعة والنعومة وطقطقة العظام والمفاصل وتدليك ما يمكن تدليكه من الرأس وحتى القدمين..!

المهم ، أن بيوت التدليك هذه تحظى برعاية الدولة وتشجيعها ، فهي إحدى أهم السبل المعتمدة هناك لاجتذاب السياح الأجانب وبالتالي "إنعاش" الاقتصاد الوطني ودعمه بما تكتسبه من عملات صعبة ، لذلك فإن أولئك "المرشدين" السياحيين يعملون بكل حرية وبدون حذر أو خوف من عيون الشرطة... لا بل إن عيون الشرطة تلك غالباً ما تتدخل لمصلحة تلك العيون الزائغة التي تتحرك في كل الاتجاهات بحثاً عن السائح الأجنبي والانقضاض عليه..!

ثم إن الدولة هناك تنظر إلى هذه البيوت على أنها بيوت للتدليك، والتدليك شيء والدعارة شيء آخر، وهناك فرق كبير بين أن تدخل إلى مكان ما بحثاً عن علاج طبيعي أو تدليك بالايدي

ومكان آخـر يمارس فيه البـغاء..! نعم هناك فـرق ، وفرق شـاسع وكبـير، لأن اللافتـة في الاعلى تقـول: بيـوت للتـدليك، وليس للـدعـارة وهذا يكفي..!

واقتحمنا أحد بيوت التدليك تلك..؟!

قررنا أن نقتحم أحد هذه البيوت، أعني بيوت التدليك.. بدافع الرغبة في المعرفة والاستطلاع أو الفضول أو شيء من ذلك لا أكثر، صدقوني..!

سألنا عن بيت محترم من هذه البيوت.. ولا أدري من أين جاءت كلمة "المحترم" هذه ، المهم أنها جاءت والسلام..

وبعد قليل أخبرنا موظف الاستقبال في الفندق بأن علينا أن نذهب إلى سيارة الأجرة التي تنتظرنا في الخارج وأن نُعطي سائقها تلك الورقة الصغيرة التي كتب عليها ، على ما يبدو ، عنوان ذلك البيت "المحترم"..!

ذهبنا، وأعطينا السائق تلك الورقة.. ابتسم ، ورمقنا بنظرة خاطفة ثم انطلق بشيء من الزهو..!

- سألنا : من إيطاليا أنتم..؟

وقبل أن ينطق صاحبي بكلمة أمسكت يده وأجبت.. نعم، وكيف عرفت..؟!

قال: من وجوهكم ، فنحن نحب الطليان كثيراً، والفتيات بالتحديد يحببن الرجال الطليان أكثر من غيرهم..

يا لهذا المخادع ، أجزم أني لو قُلت بأننا من أية جنسية أخرى لقال الكلام نفسه، إنها إحدى وسائلهم في اصطياد الزبائن، ولكن لا بأس، لنذهب معه إلى آخر اللعبة..

قلت : ونحن نحبكم أيضاً، أي نحب فتياتكم، والجميلات منهن على وجه التحديد..

ضحك كثيراً ثم قال : نحن في الطريق إليهن..

ثم راح يشرح ويتباهى بمفاتن الفتيات اللواتي ينتظرننا دون أن ينسى بالطبع أن " ينصحنا " بأن لا نقترب من غيرهن أبداً ، لأن الأمراض منتشرة هنا كثيراً ، والإيدز مرض فتاك وخطير جداً ولا بد لنا من أن نكون في غاية الحذر منه..!

قلت بشيء من الخبث : وما علاقتنا بـ"الإيدز" أو الأمراض تلك، نحن نبحث عن التدليك ، أليس هو بيت للتدليك..؟!

- بالتأكيد.. هكذا أجاب ، ثم ضحك بصوت عالٍ واستدار بسيارته ليقف أمام إحدى البنايات ، ونزل ليفتح لنا باب السيارة وهو ينحني ثم أشار بيده صوب بوابة بناية يحرسها رجلان انحنيا معاً حال وصولنا فدخلنا..

في الداخل كانت هناك مجموعة من الرجال بملامح متنوعة الأشكال تدل على أنهم من بلدان أو قارات مختلفة ..

وأمام هذا الحشد من الرجال كانت هناك صفوف من الفتيات يجلسن خلف لوح زجاجي كل تعرض بضاعتها ، والبضاعة هنا هي الجسد والشكل..! أما الأعمار فهي تتراوح بين ١٨ و ٢٣ عاماً كحد أعلى..

وعند كل فتاة تجد رقمين.. الأول هو رقمها الذي تُطلب بواسطته من قبل رجل الاستقبال، والثاني هو سعرها.. المهم أن الكل يتفحصون ، فالعيون التي تراقب إنما هي " تحملق " لتجري فوق الأجساد الناعمة وتنزلق ثم تعود لتتسلق من جديد وتتوقف عند الأرقام تلك.. أما الفتيات فقد بدا معظمهن بعيون منكسرة يشوبها بعض الحزن أو ربما الإرهاق أو الملل..!

وبعد أن تتفحص جيداً فإن عليك أن تختار الرقم الذي يعجبك..

وبمجرد أن تبلغ رجل الاستقبال فإنه سينادي على الرقم الذي اخترته عبر مكبر للصوت لتقفز صاحبته بكل حيوية وتتجه مثل راقصة باليه نحو غرفة من تلك الغرف العديدة ، أما أنت فالمفروض أن تسير خلفها في الممر الطويل نحو تلك الغرفة التي ستدخلها لتجد في داخلها حماماً بخارياً في وسطه طاولة تشبه الحوض وبالقرب منه منضدة محاطة بثلاثة كراسي مع سرير بالطبع.. أما الكرسي الثالث هنا فهو احتياط لمدلكة ثانية إذا ما رغبت في ذلك..!

وتنحني الفتاة بمجرد أن تدخل ، و تبدأ هي بفك أزرار قميصك وما بعد القميص من الأعلى والأسفل ثم تنتهي برباط الحذاء ، ممنوع أن تمس أنت شيئاً من ملابسك ، فتلك مهمتها ، وعندما تصل إلى نقطة الصفر فان عليك أن تتمدد على تلك الطاولة التي تشبه الحوض لتنطلق هي في عملية " المساج " التي تبدأ بطقطقة عظام أصابعك لتمر من عندها إلى كل مكان في جسمك ، لا تستثني شيئاً أبداً، بينما أنت في آخر غنج وكأنك سلطان زمانك، والأهم أنك تشعر وكأنك تتمنى أن لا تنتهي طقطقة العظام تلك ، وهي في الحقيقة لا تنتهي، أما كيف فلا أدري ، وفي الواقع لم أعرف حتى الآن من أين جاءت بكل تلك الطقطقة أو كيف تفعلها بتلك الحركات التي تستخدم فيها أصابعها وقدميها وربما أشياء أخرى من جسدها دون أن تنسى طبعاً أن ترمقك بين حين وآخر بنظرات لا يصعب عليك فهمها..!

وبمجرد أن تنتهي من كل ذلك تجلس إلى المنضدة بانتظار الشراب الدافئ الذي يشبه اليانسون ، وخلال فترة انتظارك للشراب الدافئ ذاك سيكون عليك أن تقرر بين أن تتجاوب مع تلك النظرات أو أن

تتظاهر بأنك لا تفهم أبداً لغة العيون ، وأنك برئ تماماً جئت من أجل التدليك ، و التدليك فقط...!

أما إذا رغبت في أن تنهي كل شيء بمجرد أن تشفط ذلك الشراب الدافئ وتهم بالخروج فإنك ستجد أن كل تلك الابتسامات وذلك " الغنج " والدلال الذي عشته خلال الدقائق القليلة الماضية وقد انقلب إلى نكد في نكد ، إذ عليك أن ترتدي ملابسك بنفسك وتشد رباط حذائك بنفسك ثم تخرج لوحدك بدون تحية أو انحناءة أو كلمة وداع لأنك باختصار لست الشخص المطلوب هنا..!

يوم أغرقونا في شانغ ماي .. !

كان الجو في غاية الروعة صبيحة ذلك اليوم النيساني، "(نسبة إلى شهر نيسان أو إبريل)، أما الأجمل فهو بدلة صاحبي الرسمية جداً والتي ارتداها لأول مرة وهو يستعد لاجتماع عمل كان ينتظره بعد نحو ساعة من خروجنا.

خرجنا من بهو الفندق الذي يتوسط " شانغ ماي "، تلك المدينة الشمالية التي تبعد نحو (٦٠٠) كم عن بانكوك العاصمة والتي تمتاز بالهدوء خلافاً لما عرفت به المدن التايلندية الأخرى من صخب وضجيج وزحام شديد يصل حد الاختناق.

وبدلاً من أن نستقل سيارة أجرة اقترح صاحبي أن نقطع المسافة سيراً على الأقدام خصوصاً وأن الجو كان يشجع على ذلك .. وبينما هو منهمك بتعديل ربطة عنقه على بعد أمتار قليلة من المبنى الذي نقصده حدث ما لم يكن في الحسبان أبداً .. فقد انهالت علينا رشقات متقطعة من المياه لم نكن لنقدر على تحديد مصدرها بسبب تلاطمها المفاجئ فوق رأسينا ، وما أن رفعنا عيوننا حتى انهالت علينا رشقات أخرى ثم أخرى من اتجاه آخر وكأننا قد وقعنا في المصيدة ..!

لم أكن أعلم ما الذي يحدث بالضبط ، ولا حتى صاحبي أيضاً، لكنني كنت أسمعه يشتم ويسب ويصب اللعنات في اتجاه سيارة حوضية لمحتها تمرق أمامنا بسرعة وهي تحمل مجموعة من الشبان والشابات.. وفي غمرة ذلك وجدت نفسي أقفز طائراً إلى الرصيف الآخر بينما ظل صاحبي يتلقى "الرشقات " المائية وهو يندب حظه العاثر ليس لشيء ولكن لأناقته التي أصبحت في خبر كان بعد أن أصبح على بعد خطوات فقط من موقع اجتماع العمل الذي كان ينتظره..!

وبعد أن هدأت عاصفة الرشقات المائية تلك عدت إلى صاحبي لأجده في أعلى درجات الغضب والغليان ، أسأله فلا يجيب ، أتحدث إليه ولا يبالي بي أبداً ، وفي داخلي ضحكة حبيسة لا أجرؤ على إظهارها في تلك اللحظات الحرجة والعصيبة ..!

● قُلت له : ما الذي حدث ..؟

- لا جواب ، بل نظرات حانقة فقط وكأنني أنا من رشقه بكل تلك المياه..!

● هل تعرفهم ..؟

- نظرات ، و نظرات حادة فقط دون أي كلام ..

● أرجوك ، كفى ، هذا كل ما قاله ..غير أنه وقبل أن يكمل كلمة " كفى" فوجئ برشقة ماء أخرى من أعلى البناية التي نقف عندها هذه المرة ..!

وجه نظراته إلى الأعلى دون أن ينبس ببنت شفة ..

عندها فقط لم أتمالك نفسي، فرحت لأنفجر ضاحكاً بعد أن فقدت القدرة على حبس مشاعري التي انتابها أيضاً الكثير من علامات الدهشة والاستفهام والتي تبحث عن إجابات لكل هذا الذي يحدث ..

أمسكته من يده وتوجهت معه إلى أقرب سيارة أجرة وقلت له : لنعد إلى الفندق وبعدها يحلها الحلال ..

عُدنا أدراجنا ، ومع عودتنا انهالت علينا ونحن داخل السيارة رشقات أخرى من النافذة كانت موجهة من دراجة نارية هذه المرة بينما السائق الذي أغلق زجاج نافذته يضحك بملء الفم وهو يتحدث إلينا بلغة لا نفهم منها ولا حتى كلمة واحدة..

كنت أضحك داخل السيارة وصاحبي في أعلى درجات الغضب وكأنه على وشك الانفجار..

وعند البوابة الخارجية للفندق فوجئنا بطفل مع والدته يحمل رشاشاً بلاستيكياً اختار أن يوجهه نحو صاحبي وليس غيره ليرشقه بدفعة أخيرة من الماء وهي الرشقة الوحيدة التي جعلته يبتسم وهو يقول " حتى أنت يا...... "!!

المهم ، توجهنا إلى استعلامات الفندق مباشرة بحثاً عن تفسير لكل هذا الذي حدث ، وقبل أن نفتح أفواهنا بكلمة وجدنا الآخرين وهم غارقون بالضحك للحالة التي كنا عليها بينما كان يجلس هناك في إحدى زوايا صالة الاستقبال رجل طاعن في السن نهض حالما رآنا ليبدأ بالشرح متطوعاً وهو يقول إنه "عيد الماء"، فاليوم هو يوم الماء في شانغ ماي، وهو من الأيام المقدسة بالنسبة لأبناء هذه المدينة، حيث ينطلق الجميع ، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء ، في صبيحة هذا اليوم وهم يخزنون الماء في أحواض السيارات أو عند الأرصفة وفوق أسطح البنايات وبين دهاليز الطرق ليرشقوا به بعضهم بعضاً في ساعات من اللهو والمتعة..

أما صاحب الحصة الأكبر من تلك المياه، وفقاً لرواية ذلك الرجل الطيب، فهو الذي يخرج بكامل أناقته في وقت غير مخصص للجد أبداً، و الحكمة هنا تكمن في إخضاع ذلك الرجل للتخلي عن أناقته وارتداء ما ينسجم وتلك المناسبة التي عرفنا في ما بعد أنها تستقطب العديد من السياح الأجانب الذين يحرصون على زيارة شانغ ماي في هذا الوقت تحديداً لمشاركة أبناء تلك المدينة بعيدهم الذي يبدو غريباً لكنه في غاية المتعة والجمال..

وهكذا فهمنا القصة ، فقد كانت بدلة صاحبي وأناقته هي السبب

في كل ما حدث، أما ابتسامات المارة التي كانت تواجهنا في الطريق فقد اتضح أنها ابتسامات تنطوي على الكثير من الخبث وكأنها تقول لنا انتظروا فالماء أمامكم أو خلفكم أو من فوقكم ، لا أعلم بالضبط ..!

هكذا هي الطقوس إذاً ، أما أجمل ما فيها فهو أن الغضب ممنوع في مثل هذا اليوم ، فبمجرد أن يشعر الآخرون بغضبك من رشقة ماء تنهال عليك الرشقات من كل جانب لتصبح في وضع لا تقوى فيه أبداً على أي اعتراض، وهذا ما حصل لنا فعلاً، فقد كان غضب صاحبي هو الذي جعل الرشقات تنهال علينا دون رحمة مثلما كانت بدلته الرسمية تلك هي السبب في الرشقة الأولى ..!

المهم أننا ضحكنا كثيراً في ما بعد ، وقلت لصاحبي إنك كنت تتحدث في البدء عن الخضراء والوجوه الحسنة في حين أن المقولة تتحدث عن "الماء" أولاً ثم الخضراء والوجه الحسن ، أليس كذلك ..؟!

وبمناسبة الحديث عن عيد الماء هذا فإن هناك في تايلاند من يتحدث عن عيد آخر، وما أكثر الأعياد في المدن التايلندية..

ففي إحدى المدن الشمالية في تايلاند اعتاد الناس أو بعضهم ممارسة طقوس تتسم بالكثير من الغرابة خلال يوم معين من أيام السنة ، فالرجال يتحولون إلى نساء ويتزينون بزينتهن ويرتدون ثيابهن، وكذلك الحال بالنسبة للنساء حيث يتحولن إلى أشباه رجال ، وخلال هذا اليوم يصبح كل شيء جائزاً ، فالكل يزعج الكل، والكل يتحايل على الكل ، والكل يمارس ما يغضب الجميع أو يتقاطع مع أعراف الجميع بحيث تبدو الأمور وكأنها أقرب إلى مسرحية هزلية فيها الكثير من الفجاجة والقرف أيضاً .. أما الحكمة من كل ذلك فهو محاولة "إغضاب" الآلهة التي ستجعل السماء تكفهر بالغيوم وفقاً لتلك المعتقدات ، ومن ثم تتحول تلك الغيوم إلى أمطار تسقي الزرع وتغسل في الوقت نفسه وجوه الرجال وتزيل عنها مساحيق النساء

وتمحو الخطايا الآثمة التي لجأ إليها سكان تلك المدينة ليعودوا إلى رشدهم ويطلبوا المغفرة وهو ما يحدث بمجرد هطول المطر الذي طال انتظاره ..!

وعش رجباً ترى عجباً ..!

الغريب والطريف في السوق التايلاندية ..

ليست المعابد فقط أو بيوت التدليك وعلب الليل هي التي تلفت الأنظار في بانكوك ، فهناك السوق أيضاً ، فالسوق التايلاندية فيها الكثير من الغرابة والطرافة معاً..

وأكثر ما يثير الاستغراب في محلاتهم هنا، والشعبية منها على وجه التحديد ، تلك الرغبة الجامحة في التعامل مع الزبائن.. إنهم يمتلكون نفساً طويلاً جداً في ذلك ، لا بل هم يستأنسون بها بينما أنت تغلي من الداخل ، فالبضاعة التي أمامك معروضة بسعر يصل إلى ألف " باث " مثلاً (والباث هي العملة التايلاندية) بينما سيكون بإمكانك أن تحصل عليها من البائع نفسه والمحل ذاته بسعر خمسين باثاً فقط، ولكن بعد أن تكون قد بذلت من الجهد ما قيمته أكثر من الـ (١٠٠٠) باث تلك ..!

والبائع هنا لا ينتظر أن تسأله، إنه يتعامل مع العيون وليس مع الألسن، فمجرد أن توجه نظراتك نحو سلعة ما يكون هو قد أمسك بذراعيك وطرح تلك السلعة أمامك ثم راح يشرح ويقارن ويأتيك بأخرى مماثلة وثالثة ورابعة وعاشرة بحيث تجد نفسك فجأة وقد انغمست دون أن تدري وسط كم هائل من البضائع المنفوشة من حولك وأنت لم تتكلم بعد ولو بكلمة واحدة فقط ، وهكذا سيكون عليك أن تشتري ، إذ لا بد وأن تشتري ، فالرجل قد بذل جهداً كبيراً معك ومن المخجل حقاً أن تتركه دون أن تشتري شيئاً ، أي شيء ، بعد كل هذه الخدمة التي قدمها لك ذلك الرجل الطيب الذي يهمه أن يفيدك ويخدمك على حد قوله طبعاً..!

وبالمناسبة ، فأنا أذكرك و أنصحك بطول البال ، عليك بطول البال ، لا تمل ولا تجزع أبداً لأن الرابح في النهاية هو الذي يقاوم أكثر

ويصمد أكثر في ذلك الصراع المتعب على سعر السلعة المعروضة للبيع..!

فقد صادف مثلاً أن اشتريت " بلوزة " رجالية مصنوعة باليد ، اعتقدت بأنني كنت "شاطراً" جداً مع صاحب المحل الذي ابتعته منه وأنني قد تفوقت عليه في تعاملي معه ، وعند عودتي إلى الفندق صرت أعرضها على زميل لي وأنا أتباهى بالسعر الزهيد الذي توصلت إليه بعد جهد كبير بذلته مع صاحب ذلك المخزن الذي اضطر إلى بيعه لي بثلث سعره المعلن ..

غير أن المفاجأة أذهلتني حقاً ، فقد أخرج زميلي من كيس كان يحمله بيده " بلوزة " مماثلة تماماً لا تختلف عن بلوزتي سوى بالألوان فقط ، أما السعر فقد كان ثلث سعر بلوزتي بالتمام والكمال ، وعندما سألته عن المخزن وصف لي المخزن نفسه الذي كنت فيه والبائع الذي اشتريت منه ..!

تُرى من كان الأشطر، ومن كان نفسه أطول في هذا الصراع .. ؟!

أما أسواق الذهب هنا، فهي عامرة بمصوغات قد لا تجد النساء بجمالها في أي مكان آخر، إنها أغنى محلات الذهب في العالم ، وأكثرها روعة وفتنة .. ولكن ، ويا ويل لهذه الـ (لكن) ، إن على الذي يشتري الذهب هنا أن يكون خبيراً فيه ، والخبرة هذه لا تعني المعرفة الاعتيادية بنوعية الذهب ، فهذه لا تكفي ، إنما المطلوب شخص خبير وخبير جداً بالذهب وإلا فأنك ستخرج من أحد هذه المحلات وقد شفطوا ما في جيبك وسلموك مصوغات من (المشمش) ، أعني (في المشمش)، ولك أن تفهمها بالطريقة التي تعجبك ..!

وبقدر ما سيزعجك سوق الذهب هذا ستكون مرتاحاً جداً من

محلات خياطة الملابس، فهنا يمكنك أن تختار أية قطعة قماش وتلبسها كبدلة بأحدث طراز بعد ساعة واحدة فقط أو ربما أقل .

فقط ادخل إلى أي محل خياطة واختر القماش الذي يعجبك وأبلغه بالساعة التي تريد فيها بدلتك ثم أعطه عنوانك واذهب مطمئناً قرير العين .

ففي الساعة والدقيقة سيكون الخياط عندك في غرفتك ليسلمك بدلتك ومعها قبلة.. والقبلة هذه من عندي بالطبع، وعلى طريقتنا نحن وليس على الطريقة التايلاندية، ذلك أن الخياط التايلاندي لا ينتظر القبلة التي يطبعها على خدك وإنما ينتظر ثمن جهده محسوباً بالوقت طبعاً ، فكلما كان وقت الانجاز قصيراً كان الثمن مرتفعاً..

أما إذا حدث وأن تخلف الخياط عن موعده فاعرف أن أمراً ما قد حصل خارج إرادته .

فبعد أن جاء الخياط إلى صاحبي متأخراً بساعتين فقط راح صاحبي يتظاهر بالغضب، لأن الخياط هذا قد تسبب في تأجيل مغادرته الهند ، والتي كانت مقررة أن تكون صباح ذلك اليوم.. هكذا قال له ، أما الخياط فكان وديعاً مبتسماً وفي غاية الأدب، وفي هذه اللحظة أخرج من جيبه بكل هدوء نشرة مواعيد الرحلات الجوية ليبلغه بأن طائرته ستقلع مساء ، أي بعد أكثر من ثماني ساعات من الآن ، وأن ليس من طائرة أقلعت إلى بلده صبيحة ذلك اليوم ..!

ابتسمت أنا ، وحبست ضحكتي ، بينما راح صاحبي يتلعثم لا يعرف ماذا يقول، في حين بدأ الرجل الخياط يعتذر ويشرح له سبب تأخره بكل أدب وكأنه يسعى إلى إنقاذ صاحبي من ذلك الإحراج الذي

أوقع نفسه فيه في محاولته الفاشلة لخفض قيمة تلك البدلة بحجة تأخر موعد وصولها أو تسببها في تأخير رحلة عودته إلى بلده ..!

وإذا ما كان الخياط التايلاندي دقيقاً وحريصاً على الوقت لأسباب تتعلق بعمله ورزقه فإن ذلك لا يعني أن جميع التايلانديين يحترمون الوقت.. أبداً، فالوقت لا يعني شيئاً عند معظمهم هنا، والدليل أن أحداً ممن التقينا بهم لم يحضر في الموعد الذي اتفقنا عليه، فالتأخير عندهم أمر عادي جداً ولا يحتاج منك إلى أي غضب أو نرفزة..!

ويبدو أن صديقنا المقيم هناك اكتسب تلك العادة أيضاً بتقادم الزمن، لذلك فقد " زرعنا " في بهو الفندق نحو ساعتين قبل أن يأتي ليأخذنا معه ذلك اليوم للتجوال بأسواق تايلاند..

وفي الأسواق الكبيرة تلك " الهايبر ماركت " كان صديقنا يلح علينا بأن لا نشتري شيئاً أبداً، وأن نكتفي بـ (الفرجة) فقط ومعرفة أثمان البضائع التي نبحث عنها .

وقبل أن نخرج من ذلك السوق الكبير، دون أن نشتري شيئاً بالطبع، قادنا صديقنا إلى جناح أرضي جانبي منزوٍ في أحد أركان ذلك السوق الكبير .. وفي ذلك الجناح فقط اكتشفنا سبب إلحاحه ومعنى نصيحته لنا بعدم الشراء من تلك الأجنحة التي زرناها في الطوابق العليا لذلك السوق .. فهنا، أي في هذا الجناح ، تجد السلع نفسها التي رأيتها فوق والملابس منها على وجه التحديد ولكن بأسعار مختلفة كلياً بحيث تصل إلى النصف تقريباً ..!

أما السبب في ذلك فيكمن في أن الملابس هنا تباع بدون تلك الأغلفة " المنمقة " التي يبدو أنها تكلفهم الكثير، إنها تباع هنا بأكياس من النايلون وليس في علب مذهبة ومزركشة ومغطاة بالسيليفون ..!

وبعد، فإنك في الحالتين سواء اشتريت بالأكياس أو العلب، من فوق أم من تحت ، فإنك ستحصل في النهاية على هديتك المجانية التي تخصصها إدارة المخزن الكبير لكل من يشتري بقيمة معينة، وهي هدية يمكن أن تكون أغلى ثمناً من بضاعتك التي اشتريت ..!

يأكلون رأس القرد..!

إنهم يأكلون الكثير من الأشياء التي قد لا تخطر في بالك ، ففي سوق اللحوم مثلاً ستجد لحوم الكلاب تباع إلى جانب لحوم الأبقار، ولحوم القطط إلى جانب لحوم الأغنام ، أما لحوم الأحياء المائية فحدث ولا حرج ، إنها أنواع لا تعد ولا تحصى، وبعض أنواعها يصعب عليك ليس هضمها فقط بل مجرد النظر إليها، إنها تصيبك بشيء من الاشمئزاز، لا بل قد تؤدي بك إلى الدوار.. أما في الجانب الآخر فإنك ستجد أكواماً مكدسةً من الحشرات التي تباع بالوزن ، والحشرات هذه تطبخ عندهم وتؤكل شأنها شأن أية مادة غذائية أخرى ، والغريب أن أسعارها مرتفعة بعض الشيء ، وهناك أنواع من الحشرات تباع بعسر أغلى من افضل أنواع اللحوم، وغالباً ما تستخدم هذه الحشرات في تجهيز الصلصة، ويفضلها بعضهم باردة بعد الطبيخ وأخرون يصنعون منها "السوب"، والسوب هذا (لذيذ جداً) على حد زعم ذلك النادل الذي حضر لخدمتنا في المطعم الصيني..

وللمطعم الصيني هنا حكاية من الصعب جداً أن يصدقها المرء عندنا ، لكنها ليست حكاية بالنسبة لهم هناك في تايلاند.

فإلى جانبنا في جهة اليسار كان هناك جناح خاص في هذا المطعم.. وفي الجناح هذا تحدث أمور تشبه إلى حد بعيد ما كنا نراه في أفلام الهنود الحمر الأمريكية، ولا أعتقد أنكم تنسون ذلك المنظر الذي يحتفل فيه الهنود وهم يرقصون دائرياً حول رجل أبيض مقيد بالحبال يعدونه للعشاء..!

وإذا كنت لا أستطيع أن أجزم بصحة حكاية الهنود الحمر تلك أو ما إذا كانت مجرد دعاية كاذبة هدفها تشويه صورة أولئك الأقوام ، إلا

أن الذي يحدث هنا ليس ضرباً من الخيال ولا هو بالدعاية لأحد أو ضد أحد ، إنه أمر مألوف جداً وسيكون بإمكانك أن تراه بأم عينيك إذا ما عزمت على السفر إلى تايلاند ..!

ولكي لا أطيل عليك أقول إن في الجناح ذاك من هذا المطعم أكثر من طاولة مستديرة محاطة بعدة مقاعد ، وفي وسط الطاولة هذه حوض صغير ينتهي بفتحة دائرية أيضاً يمكن أن تتحكم في محيطها الدائري لأنها متحركة ، والطاولة هذه متحركة هي أيضاً ..

المهم أن الحوض الصغير ذاك مخصص للقرد ، أجل القرد .. إنهم يضعون فيه قرداً ثم يغلقون الفتحة الدائرية على رقبته بحيث لا يظهر منه سوى الرأس فقط ..

وتبدأ الحفلة عادة باحتساء الكحول ، فكل يشرب على هواه وأمامه قدحه وصحنه وشوكته والسكين مع شيء آخر هو عبارة عن مطرقة بحدين، الأول رأس مدورة ثقيلة والثاني مثل شفرة حادة..

ومع تصاعد " نغنغات " الكحول وتأثيراته يبدأ اللعب مع القرد الذي لا يملك غير أن يدور برأسه وعينيه وكأنه هو الذي يتفرج لأنه لا يدري بالطبع ما الذي سيحدث له بعد لحظات.. !

وبين حركة من هذا وأخرى من ذاك يبدأ أحدهم - وغالباً ما يكون أكثرهم سكراً - بالطرق على رأس ذلك القرد المسكين، إنه يطرق بالرأس المدور بمطرقته تلك على رأس ذلك القرد الضحية .. وبعد طرقة ثم أخرى وأخرى يفقد القرد وعيه ليقلب الجميع مطارقهم ويستخدمون رأسها الثاني ليشقوا بها رأس القرد، حيث تبدأ عملية فتح الجمجمة بطريقة في غاية البشاعة والوحشية..!

ولمجرد أن تفتح الجمجمة تلك يصار إلى نزع المخ من رأس القرد ليبدأ " المحتفلون " بأكله وهو نيء وبدمه ودون أن يلتفتوا أبداً لذلك الرأس الأجوف الذي تركوه أمامهم لحيوان مسكين كانوا يلعبون معه منذ لحظات قليلة فحسب..!

وهكذا وبمجرد أن ينتهي الجميع من تناول وجبته " الشهية " تلك ينهض كل منهم ليغادر المكان وكأن شيئاً لم يكن..!

أما نحن فإن مجرد سماعنا للحكاية هذه، والتي يمكن أن تدور أحداثها فوق طاولة كانت على بعد أمتار قليلة منا، جعلنا نستغني عن وجبة غدائنا ونؤشر للنادل بإلغاء طلبنا لنغادر المطعم فوراً ونعود إلى غرفنا في الفندق دون شهية ، بل بنفس مسدودة ليس للأكل فقط و إنما حتى للحديث ، مجرد الحديث ، عن مثل هذه الحكاية الغريبة العجيبة التي لا تمت إلى الروح الإنسانية بأية صلة، بل هي جريمة بشعة لا بد وأن يعاقب عليها القانون في أي مكان آخر وفي كل زمان ، اللهم إلا إذا كان ذلك في العصر الحجري أو في ذلك المطعم بتايلاند..!

أخيراً فإن في تايلاند حكايات لا تنتهي ، إن فيها من الغرائب ما يجعلك تتمنى لو أن تتاح لك أكثر من فرصة لزيارتها، لأنك وفي كل مرة تزور فيها هذا البلد ستكتشف أشياء أخرى و أخرى جديدة ، وكل ما تكتشفه يصلح لأن يكون مادة لموضوع آخر وحكايات أخرى ترويها في مثل هذا الكتاب وخصوصاً عندما تقتحم بوابات المجتمع التايلاندي لتغوص في تفاصيل حياتهم المليئة بالمفارقات التي ستتوقف عندها كثيراً وأنت فاغر الفم والعينين معاً ..!

فرنسا...

باريس ... هكذا رأيتها

هذه هي باريس ، مدينة الأحلام والنظام ، والحدائق والجمال ، إنها المدينة التي تعيش على هاجس الماضي بروح المستقبل وحضارته ورقيه وتطوره .

في باريس ستكتشف أنك تعيش في زمن الغد ، بالنسبة لك طبعاً أو لي ، أما بالنسبة لهم فهو زمن اليوم، لأن زمن غدهم لم يأتِ بعد أو أنه في طور البناء والصنع والإعداد، هنا في باريس ستكون ملزماً لأن تقارن، تقارن بينك وبينهم ، وأقول ملزم لأنك لا بد وأن تكون غيرهم..

فالسؤال الأول الذي سيطرق ذهنك ، رغماً عنك ... شئت أم أبيت ، هو: لماذا لا نكون مثلهم؟، لماذا لا نعيش حياتهم ، ما الذي ينقصنا بحيث أصبحنا نحن في الوراء وهم هناك بعيداً في الأمام؟!..

ولكي لا يزعل البعض أقول ، إنني هنا لا أتحدث عن القيم الإجتماعية أو الرابطة الأسرية أو ما شابه ذلك ، ففي هذه نحن في الأمام، أجل في الأمام ، أما في غيرها فنحن في الوراء بل وفي الوراء البعيد..!

والمحزن أن الصورة هذه لم تكن هكذا من قبل ، بل كان العكس تماماً، كنا نحن في الأمام وهم الذين يقبعون في الخلف .. فيوم كان العرب يقتحمون بوابات العلم بكل قوة كانت باريس وغيرها من مدن الغرب تغط في ظلام دامس من الجهل والتخلف، هكذا حدثونا، هكذا قالوا لنا أو هكذا يقول التاريخ.

أقول، إنك عندما تطوف شوارع باريس هذه ستجد، مثلما هو الحال في أغلب المدن الأوروبية أيضاً، أن صوتاً يناديك من داخلك ليعكر عليك مزاجك وافتتانك وسعادتك، الصوت ذاك هو صوت

الضمير الذي يُحملك أنت أيضاً مسؤولية تأخرك، أعني تأخر مجتمعك وتخلفه لأن كلاً منا مسؤول، وكلاً منا يتحمل بعضاً من مسببات هذا التخلف الذي نعيشه في أوطاننا ومجتمعاتنا المتأخرة أو "النائمة"، وهي الكلمة الأصح والأقرب إلى المنطق من كلمة "النامية" التي يستخدمونها للمجاملة لا أكثر..!

الشوارع مزدهية وجميلة وأكثر من رائعة ، الحدائق نضرة وفسيحة وكأنها جنائن خضر غناء ، البنايات ما أجملها و أحلاها و أعلاها ، أما البشر فهم منظمون، لا أحد يتجاوز على النظام أو القانون هنا ، ليس من سائق يستهين بإشارات المرور، ولا حتى المشاة الذين يلتزمون بكل إرادة بالإشارات تلك حتى عندما تكون الطرقات خالية في أوقات متأخرة من الليل ، وعندما أقول بكل إرادة فذلك لأنهم يحترمون النظام ليس خوفاً من عقوبة أو جزية، بل إيماناً بأهمية احترام القانون والنظام، وذلك بالضبط هو شأن الشعوب الراقية..

وإذا ما كان السائقون في أغلب مدننا العربية يستخدمون أجهزة التنبيه لسبب أو بدونه، بل قل للتسلية في بعض الأحيان، فأنا هنا في باريس منذ ما يقارب الشهر ولم أسمع أبداً صوت "الهورن" هذا..!

أما الطرقات فهي نظيفة، ونظيفة جداً، لا بل إنك لن تحتاج أبداً إلى أن تنظف حذائك مثلما تفعل عادة أكثر من مرة في اليوم الواحد وأنت في مدينتك..!

السير هنا بمعدلات محددة للسرعة ، وإذا ما ركبت رأسك وزدت سرعتك فإن رجل الشرطة سيكون بانتظارك بعد أقل من كيلو متر واحد أينما كنت وفي أية ساعة، ليلاً أو نهاراً ..!

ليس هناك أي مظهر من مظاهر الفوضى في الشارع ، وليس هناك ما يدل على المظاهر الفارغة أو سوء التهذيب في الشارع باستثناءات قليلة بالطبع.

ربطات العنق هنا قليلة جداً ، لأنها ليست مهمة ، ولا هي بالوسيلة التي تمنحك احترام الآخرين ، فالمظاهر هذه زائفة لا معنى لها أبداً، لا بل قد تجد أن منظرك غير مألوف أبداً وأنت تتجول في الشوارع تلك بربطة عنق و بدلة رسمية..!

ربما تكون الحدائق العامة المنتشرة في مختلف أرجاء باريس هي من بين أكثر الأشياء التي تشد انتباهك ، فهي جميلة جداً ونظيفة جداً ومنظمة جداً ، وإذا ما ترتفع ببصرك قليلاً في وسط هذه الحدائق ستجدها وكأنها لوحة في غاية الجمال ، المناظر فيها بهيجة وتريح الأعصاب فعلاً ، فالأزهار تنتشر في أرجائها والأشجار الوارفة تغطيها والبرك والبحيرات الصناعية التي تتدفق منها المياه الغزيرة تضفي على جمالها جمالاً أخاذاً ، وعندما تطوف في مسالكها المغطاة بأحجار ملونة مثل ألوان الزهور ستدهشك كثرة التماثيل الجميلة المنتشرة في أرجاء مثل هذه الحدائق وجميعها لرموز من تاريخ فرنسا القديم والحديث ، والتماثيل هذه مصحوبة عادة بيافطات حجرية نُقشت عليها معلومات مختصرة عن شخصياتها..

إنها لم توضع هكذا اعتباطاً وبدون شرح لمعانيها أو تعريف بأصحابها مثلما يحدث عادة في بعض البلدان التي عرفت كيف تصنع التماثيل لكنها لم تعرف بعد أهمية التعريف بأشخاصها لأن المعنى لا يهم عند بعضهم ، فالمهم هو أن هناك تمثالاً والسلام ..!

وهنا في هذه الحدائق ليس من أحد يطلب منك رسوم الدخول ، فهي حدائق عامة مفتوحة للعامة فعلاً ، لكل الناس دون استثناء ، وربما يكون ذلكم هو السبب الذي جعل العامة يحرصون عليها كل ذلك الحرص الكبير ، فليس من أحد يمس ، مجرد المس ، زهرة فيها أو يدوس عشبه من الأعشاب الخضراء الزاهية التي تعكس ضوء الشمس بلمعانها البراق ، وليس من أحد يخدش مقاعدها الخشبية المنتشرة في أرجائها أو يكتب شيئاً للذكرى بطريقة الحفر أو " التخريب " فوق جذوع تلك الأشجار العالية..!

ولأن البلديات هنا تعرف ذلك و متأكدة منه فقد عمدت على ما يبدو إلى تقليل عدد الحراس في تلك الحدائق وتعويضهم بمزارعين يتولون مهمة الاعتناء بالزهور و الأشجار والموجودات الأخرى.

ولست هنا بحاجة إلى الحديث عن حدائقنا مقارنة بهذه الحدائق، ولا بزائريها مقارنة بزائري ورواد حدائق باريس، فأنتم تعرفون ذلك جيداً وتفهمون بالضبط ما الذي أقصده ..!

أما وسائط النقل هنا ، الأرضية منها وتحت الأرضية، واعني بها "المترو"، فهي منظمة ودقيقة جداً في مواعيدها ، وهناك نشرات توزع مجاناً عند المحطات إضافة إلى أخرى معلقة فيها وتتضمن أوقات انطلاق حافلاتها أو قاطراتها ومواعيد وصولها بالدقيقة ، وباستطاعتك أينما كنت أن تعرف بالضبط موعد وصول الحافلة إلى المحطة التي تنتظر فيها، وأيضاً موعد وصولك إلى المحطة التي تروم الوصول إليها .. والحالة نفسها تنطبق على وسائط النقل تحت الأرضية " المترو " وهي وسائط مضى على استخدامها عدة عقود من الزمن في حين أنها لم تزل غير معروفة أبداً في العديد من بلداننا ...

و " المتـرو " هذا قطار تحت الأرض يمر فـي أنفـاق حول المـدينة و يقطـع وسطها وسرعته عالية جـداً ويختصر الزمـن والمسافة، وبعض منهـا يمـر من تحت النهـر مـثلمـا هو الحال في مـتـرو الأنفـاق الذي يمر من تحت نهر الدانوب في بودابست عاصمة المجر ..

أما رجـال الشرطة هنا فإنهم في خـدمتك فعلاً وليس قـولاً فقط ، إنهم يؤدون واجبـاتهم بكـل صـرامة مـا دام الأمـر يتـعـلق بأمن المواطن وسـلامـتـه ، لذلك فـهم لا يتـسـاهلون أبداً، على سبـيل المثـال، مـع ذلك السـائق الذي لم يلتزم بإشـارة المرور الضوئيـة لسبب أو لآخـر، إنهـم في مثل هذه الحـالة لا يفهمون غير أمر واحد فقط هو أنه قد ارتكب خطأ جسيماً وأن عليه أن يدفـع ثمن فعلته الشنعاء تلك ..!

ولأن الجـمـيـع يعرفـون أن لا جـدوى من مـجادلة الشـرطي الصـارم في مـثل هذه الحـالات فـإنهم يتـقـبلون النتـائج بلا مـناقشـة أو ضجـر ، فـالخطأ هنا جـسـيم حـتى وإن كـان التـقـاطع خـاليـاً، فـتـجـاوز الإشـارة الضـوئية الحـمـراء يعني عندهم شـروعاً بالقـتل، أجل شـروعاً بـالقـتل ، هكذا ينص القانون هنا ..

ولا أحـسـبك تنـسى ، وأنت ترى كل ذلك ، تلـك المخـالفـات التي لا تعـد ولا تحـصى في شـوارعنـا.. فالإشـارة الضـوئيـة عند الكثـيـرين منـا ليست أكـثـر من لوحـات " للـزينة " ، وأكـثـر من ذلك أن عدم الالتـزام بهـا عند بعـضهم إنمـا هو شيء من "البطولة" الخـارقة وهي مـدعاة للفـخـر والتباهي خصوصاً عندما تكون إلى جانبه فتاة غيداء اعتادت أن تنظر إليـه بإعـجـاب وهـو يرفض الامـتـثـال ويتـحـدى إشـارات المـرور تلك وينطلق بـ "رعـونة " وبسرعـة ربما سـتـقوده لاحـقـاً إلى القـبر لـوحده أو مع غيره من أناس أبرياء لا ذنب لهم ولا صلة لهم بالـرعونة تلك أب ..

أما الحديث عن البنايات الشاهقة والجميلة التي تملأ شوارع باريس فهو حديث ممتع للغاية ، فالعمران هنا يأخذ أشكالاً شتى و البناء الجديد يتجه نحو الزجاج ، فأغلب البنايات الجديدة مغطاة بالزجاج من الأعلى إلى الأسفل ..

إنها أشبه بمرأة عملاقة تعكس نور الشمس لتشع في عز النهار ثم تتحول إلى مصباح عملاق في الليل ..

وإلى جانب البنايات الحديثة تلك هناك في باريس بنايات أخرى تجعلك تشعر، وأنت تنظر إليها، بأنك تعيش في القرن الماضي .. فالواجهات حجرية، والبناء قديم لكنه محكم جداً ، ومعظم البنايات السكنية هنا هي هكذا ، تراها قديمة العمران من الخارج لكنها من الداخل حديثة وجميلة أيضاً ..

وأغرب بناية رأيتها في باريس هي تلك التي تشغلها اليوم مكتبة "بومبيدو" أو المركز الثقافي الوطني، إنها بناية ضخمة جداً، مؤلفة من عدة طوابق، ويمكنك أن ترى من طابقها العلوي أجزاء كبيرة من باريس وربما باريس كلها ، والغرابة في هذه البناية تكمن في أنها بنيت بدون حجر أو إسمنت أو أية مادة أخرى من المواد التي نستخدمها في البناء ، إنها عبارة عن هيكل حديدي ضخم مشدود إلى بعضه ب "البراغي" العملاقة ، والجميل هنا هو أن هذه البناية قابلة لأن تنقل من مكان إلى آخر بمجرد فتح "البراغي" تلك وتفكيكها ومن ثم إعادة ربطها من جديد في المكان الذي تريد..!

والواضح أن صاحب فكرة إنشاء هذا الهيكل الحديدي الضخم كان قد تأثر كثيراً بفكرة إنشاء برج "إيفل" الشهير، فالبرج هذا كان قد أنشئ عام ١٨٨٩ بنفس هذه الطريقة تقريباً أي بالحديد و "البراغي" فقط .

وبمناسبة الحديث عن برج "إيفل" أقول إنه كان قد أنشئ في بادئ الأمر كوسيلة دعائية لمعرض باريس الدولي، ولم يكن قد دار في خلد أحد ممن بنوه يومها أنه سيصبح رمزاً لباريس، بل لفرنسا كلها، أو أنه سيستمر قائماً إلى يومنا هذا ..

وبالرغم من قدم برج إيفل، وبرغم نهوض أعداد كبيرة من الأبراج الحديثة والجميلة في مدن أخرى من العالم، إلا أن "إيفل" ظل هو الأشهر بينها ، وما زال يمثل قبلة لأنظار السياح الأجانب الذين لا يمكن لهم أن يغادروا باريس دون أن يرتقوا ذلك البرج ويتمتعوا بأجوائه الخلابة ويخرجوا منه بصور للذكرى .

إنه برج قائم على نهر السين، ويبلغ ارتفاعه (٣٢٠) متراً وفيه عدة طوابق تضم مطاعم ومحلات، ويمكنك أن تصعد إلى أعلاه بالمصاعد المتحركة أو عن طريق السلالم ..

أما السلالم تلك فهي تحتاج ليس إلى عضلات مفتولة فقط بل وإلى نفس طويل أيضاً وقدرة فائقة على الصبر و التحمل لأن الأمر باختصار ليس سهلاً على الإطلاق، بل هو يحتاج إلى جهد خارق .

ولأن الصعود أمر في غاية الصعوبة فقد جربنا أنا وزميل لي أن نستخدم السلالم تلك أثناء النزول..! ورحنا نقطع السلالم تلك باندفاع كبير في بادئ الأمر ، غير أن الاندفاع ذاك تحول في ما بعد إلى لهاث لا ينقطع ثم إلى عتاب شديد في ما بيننا لأن كل واحد منا راح يلوم الآخر ويتهمه بأنه هو صاحب تلك الفكرة " اللئيمة " ..!

المهم أننا قد تخلينا تماماً عن فكرة مواصلة النزول إلى الأرض بواسطة تلك السلالم بعد أن وجدنا أن الأمر مستحيل، لكن المصيبة أننا أصبحنا في الوسط بين طابقين، فلا نستطيع العودة إلى الأعلى

ومن ثم اللجوء إلى المصعد الكهربائي، ولا نمتلك القدرة على الاستمرار وصولاً إلى الطابق الآخر الذي سيكون بإمكاننا فيه أخذ ذلك المصعد ، هي (ورطة) فعلاً لكن ليس في اليد حيلة، فالنزول أسهل من الصعود، وهكذا رحنا رغماً عن أنفينا نواصل الهبوط بشق الأنفس إلى أن وصلنا إلى ذلك الطابق " الموعود " لنأخذ من هناك المصعد الكهربائي ونعود به إلى الأرض بلحظات فقط .

وبعد فإننا وبسبب من تلك " المجازفة " اضطررنا في اليومين التاليين إلى ملازمة البيت والفراش لأن عضلات ساقينا قد تشنجت ، بل وتورمت ، وكل منا يضحك على الآخر..!

السحر والتنجيم في بلاد العلم والمعرفة ..!

إذا كان الغربيون قد تفوقوا علينا في العلم والمعرفة، وقطعوا أشواطاً مهمة في استخدام علومهم تلك لاكتشاف كل ما هو جديد، إلى جانب ما حققوه من طفرات سريعة وطويلة في بناء حضاراتهم الجديدة التي تثير غيرة الشرقي وحسده، إلا أنهم وفي جانب آخر من حياتهم يبدون وكأنهم أكثر سذاجة وجهلاً وتخلفاً من شعوب الأرض الأخرى أينما كانت ..!

فهنا في فرنسا مثلاً ، هذا المجتمع الراقي المتعلم الذي تنعدم فيه الأمية تماماً، لا يمكنك إلا أن تقف مندهشاً، مستغرباً، وأنت ترى كل هذا الاهتمام بتلك السخافات من الترهات التي يؤمنون بها إيماناً لا يصدق ..!

فبعد أن كان الشرق هو المتهم من قبل بكونه بلاد السحر والتنجيم والخزعبلات والأساطير الخرافية أصبحت فرنسا، مثل غيرها من بلدان ومدن الغرب ، هي التي ترعى اليوم هذه الخزعبلات ، بل إن مجتمعات هذه البلدان باتت تنام وتصحو على ما تقوله تلك الخرافات وتعمل بما تمليه عليهم من نصائح وإرشادات بعضها يثير العجب ..!

فليس من أحد هنا لا يقرأ مثلاً زوايا الأبراج التي تمتلئ بها صحفهم ومجلاتهم ، لا بل هم يؤمنون تماماً بما تقوله تلك الأبراج ويعملون بنصائحها .. فإذا قال لك برجك اليوم لا تخرج من بيتك فإنك لن تخرج ، وإذا قال إن غداً هو يوم نحسك فإن الدنيا تكفهر في وجهك ، وإذا نصحك البرج بأن تقطع الطريق إلى عملك اليوم سيراً على الأقدام لأنك معرض لحادث في السيارة فإنك ستذهب سيراً على الأقدام حتى وإن كان مقر عملك في جزيرة (الواق واق) ..!

أما إذا حدث وأن تعرفت على فتاة فإن أول سؤال يواجهك هو.. ما هو برجك..؟ وإذا ما كان برجك يقاطع برجها فلا تتوقع أبداً أن تراها بعد ذلك ..!

وعندما كنت أخرج صباحاً لأجلس في ذلك المقهى عند شارع الشانزلزيه كنت أضحك كثيراً لمنظر أولئك الناس المنكبين على تلك الصفحات الخاصة بالأبراج في الصحف والمجلات.. إنهم منهمكون في قراءة طوالعهم في تلك الأبراج التي أجزم أنها من بين أهم الأسباب التي تدفعهم إلى شراء تلك الصحف والمجلات.. أما لماذا كنت أضحك فلأنني أعرف جيداً كيف تكتب هذه الزوايا، إنها تكتب من قبل أقل الصحفيين كفاءة أو قل أشباه الصحفيين، ففي المطبوع الذي كنت أعمل فيه كان عندنا رجل نصف أمي لكنه يصر على أن يتعلم مهنة الصحافة، ولأنه لم ولن يتعلمها أبداً فقد لجأ إلى كتابة تلك الزاوية التي كان يفخر ويتباهى بها و كأنها الإنجاز الأعظم في المجلة تلك..

المهم ، التفاهات هذه ليست تفاهات عندهم ، إنها أمور في غاية الأهمية ، لذلك فإن في أوروبا كلها تجد مكاتب رسمية مجازة من قبل الدولة تتولى مهنة التنجيم والعرافة وقراءة الكف وما إلى ذلك.. ففي الصحف والمجلات هناك إعلانات تستخدم أحدث وسائل الإغراء لجذب الزبائن إلى هذا المكتب أو ذاك من مكاتب التنجيم التي أصبح أصحابها من أغنياء هذه المجتمعات بسبب من تلك الأموال الطائلة التي تنهمر عليهم من أولئك الذين يبحثون عن الغيب و معرفة المستقبل بتلك الطرق و الأساليب التي لا يمكن إلا أن توصف بالسذاجة والبساطة والجهل من قبلهم والفراسة والخديعة والضحك على الذقون وعلى "الجيوب" أيضاً من قبل أصحاب تلك المكاتب.

و المكاتب هذه لا تقرأ المستقبل فقط ، و إنما هي تعالج الأمراض أيضاً و "تطرد" الأرواح وتبعد الشياطين "وتخلص" الإنسان من الرذائل ، هكذا تقول الإعلانات، وهذا هو بالضبط ما يبحث عنه الإنسان "المتحضر" في المجتمع الغربي كله، مجتمع المعرفة والتقدم والانطلاق نحو الفضاء الخارجي ، يا للمفارقة العجيبة ..!

ولعلكم تستغربون كيف يسلم الإنسان أمره إلى كلمات يسطرها إنسان مثله يدعي المعرفة بعالم الغيب عبر زاوية الأبراج في هذه الصحيفة وتلك ، غير أن استغرابكم هذا سيتحول إلى صاعقة عندما تقرؤون هذه الحكاية.. ففي إحدى المقاطعات الألمانية ذهب مزارع ليستشير عرافاً حول السبيل لإنقاذ ماشيته من مرض خطير راح يستشري بينها ليهلكها واحداً بعد الآخر ، فكان أن نصح العراف المزارع بأن يحجز زوجته - أي زوجة المزارع - في "الإسطبل " وأن يضربها كل يوم بعنف شديد صباحاً ومساء ..!

فعاد المزارع ومعه " الوصفة السحرية " حيث سجن زوجته وراح يضربها بلا شفقة كل يوم مرتين إلى أن. ماتت الزوجة، ومعها هلكت الماشية كلها..!

وإذا ما كان ذلك قد حدث في الريف الألماني فإن ما يحدث في المدن الغربية هذه لا يقل سذاجة وغرابة ، فقد نشرت إحدى الصحف يوماً عن امرأة أرادت أن تخلص زوجها من الإدمان على شرب الكحول فلجأت إلى مكتب أحد العرافين ، وبعد سلسلة من المراجعات المستمرة إلى ذلك العراف الذي كان يتمتم مع نفسه كل مرة ليعود ويخبرها بضرورة تأجيل الأمر إلى وقت لاحق لأن "مساعديه" غير جاهزين، خرج عليها بالعلاج المطلوب الذي ليس من بعده علاج لحالته تلك أبداً..!

كان العلاج يتطلب من المرأة أن تبذل جهداً كبيراً من أجل تخليص زوجها من مشكلته تلك، والجهد هذا يبدأ في البحث عن أنواع معينة من الفئران يؤخذ منها الرأس فقط ثم يطحن مع أنواع معينة من الحشرات وتوضع لمدة ثلاثة أيام داخل قطعة قماش تحت سرير الزوج..!

وفي اليوم الرابع يمزج هذا المسحوق مع طعام الرجل ليلتهمه وهو في حالة سكر شديد لتكون تلك هي آخر مرة يتناول فيها الخمر حيث يعود بعدها إلى زوجته " الصابرة " تماما مثلما عهدته يوم زفافها..!

وهكذا كان، فقد التزمت الزوجة المسكينة بكل النصائح تلك ونفذتها بالحرف الواحد ثم قدمت "الطعام" لزوجها في اليوم الرابع ليلتهمه بنهم وهو في حالة سكر شديد..

فكانت المفاجأة أن غادر الرجل الخمر فعلاً لأنه كان قد غادر الحياة بعد أن تسمم بتلك الخلطة العجيبة التي أضيفت إلى طعامه وفقاً لإرشادات ذلك العراف "الفهيم"..!

وبعد، أليست هي مفارقة فعلاً؟، أليس غريباً أن تتحول مثل هذه السخافات التي غادرها المجتمع الشرقي " المتخلف"منذ عدة قرون، إلى قيم يتمسك بها بكل قوة المجتمع الغربي "المتقدم" الذي راح يبحث في بواطن المجهول وفي أعماق الفضاء بحيث أوصلته علومه إلى إمكانية معالجة خلل أصاب إحدى مركباته الفضائية من هنا، من الأرض، وهي تدور هناك قريباً من سطح القمر..؟!

حدث في الشانزلزيه .. !

كنا قد خرجنا تواً من مسرح الليدو الشهير في شارع الشانزلزيه في باريس، وهناك، قريباً من المسرح، اخترنا مقهى صغيراً أنا وصاحبي الذي لفت انتباهي إلى تلك الفتاة وهو يقول إنها ذات ملامح شرقية غاية في الجمال ، وعند الطاولة القريبة منا جلست تلك الفتاة مع صديقتها التي بدت أكثر جمالاً منها خصوصاً وأنها كانت ترتدي فستاناً يكشف الكثير من مفاتن أنوثتها .

ولا أعتقد أنكم "ترضون" أن يبقى المرء ساكناً أمام مثل هذا الجمال الأخاذ ، خصوصاً في الشانزلزيه و قريباً من منتصف الليل..!

التفت إلى الفتاة ذات الملامح الشرقية ، وطلبت منها أن تختار بين أن تحضر هي وزميلتها إلى طاولتنا أو أن ننتقل نحن إلى طاولتهن..

ابتسمت وأدارت وجهها بغنج دون أن تنبس بكلمة ، فنهضت لوحدي لأجلس قربها..

ضحكت وقالت : ماذا تريد .. ؟

قلت: لا أريد شيئاً، فقط أن أستمتع برؤية هذه الملامح الشرقية الجذابة التي تصيب المرء بالدوار ..!

ضحكت بصوت مجلجل جعل أنظار كل من يجلس في المقهى تنصب نحو طاولتنا تلك ..!

تلفت يميناً وشمالاً وكأنني أبحث عن منقذ من هذه "الورطة" وقُلت : ولماذا هكذا..؟!

- قالت متسائلة : أنت عربي (بالعربية طبعاً) .. ؟!

● أجبت : نعم ، وأنتِ عربية أيضاً ..؟!

- ومن أي بلد عربي .. ؟

● قُلت : وماذا تتوقعين ..؟

وهنا انفجرت في ضحكة " صارخة " أعلى من سابقتها.. !

أمسكت يدها وأنا أتلفتُ من جديد، وقلت : أرجوك ، ليس هكذا ، إنها فضيحة ، ثم لماذا كل هذا الصوت المجلجل .. ؟!

- أجابت : قد تكون من المشرق العربي ..

● قُلت : ربما ، وماذا عنكِ ..؟

- عراقية ، من أبٍ عراقي من مدينة كربلاء وأم لبنانية، وأنا أُقيم هنا حالياً في باريس مع والدتي التي انفصلت عن أبي منذ سنوات عديدة.

ثم راحت تتساءلُ: وأنت، ما الذي أتى بك إلى هنا.. ؟

● قلت : ليس ذلك مهماً، المهم أننا الآن في باريس ، وأعتقد أن كونك عربية يعطيني الحق في أن أدعوك إلى العشاء في أي مكان تختارين ..

- قالت : كلا ، ليس اليوم على الأقل .. نؤجل دعوتك إلى يوم آخر

● قُلت : أبداً ، اليوم هو الأنسب وأرجو أن لا تعتذري .

- قالت : لا أعتقد أن صاحبي سيقبل ، لأنه كان قد ألح علي كثيراً للخروج معه.

● قلت : صاحبك .. وأين هو صاحبك..؟!

ثم أشارت بطرف عينها نحو (الفتاة) الجميلة التي تجلس إلى جوارها .

لم أفهم ، قُلت لها : ماذا تقصدين ، أين صاحبك .. ؟!

أشارت بيدها هذه المرة وقالت : هذا ، ألا تراه ، هذا هو صاحبي .

قُلت : تقصدين صاحبتك .. ؟!

قالت : كلا ، أقصد صاحبي ، إنه صاحبي ..!

وبدأ رأسي يدور فعلاً ، إما أن أكون أنا المجنون أو هي ، فالشخص الذي يجلس إلى جوارنا فتاة ، فتاة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ثم ، فتاة جميلة جداً ومفاتنها ظاهرة ولافتة للنظر ، الصدر النافر، والساقان اللامعتان ، والخصر النحيف ، والملامح التي تجذب مثل المغناطيس ..!

قُلت : أرجوك أوضحي ..

قالت : منذ متى وأنت في باريس ..؟ ألم ترَ مثل هذا النوع من " الرجال" ..؟!

قُلت : أي رجال وأي نوع ، ماذا تقصدين ، إنك مجنونة بلا شك ..!

ضحكت ضحكتها المجلجلة وقالت : على كل حال ، لا تشغل نفسك بهذا الأمر ، صديق أم صديقة ، لا يهم .. المهم أنني أعتذر عن عدم قبول دعوتك لهذه الليلة ، لكنني أعدك بأنني سأزورك ، فقط اكتب لي عنوانك ..

هذا أمر لا يصدق ، بل لا يمكن أن أراه حتى في الأحلام ، أيمكن أن تكون هذه الفتاة الجميلة التي تجلس إلى جانبي "رجلا"، ثم كيف..؟!

أجابت : ذلك أمر يطول شرحه ، لكنني أقول لك إن مثل هؤلاء موجودون وبكثرة ليس في باريس فقط، بل وفي أماكن أخرى عديدة من العالم، إنهم نوع خاص من الرجال "المخنثين" الذين يستخدمون " هرمونات " معينة لكي يصبحوا هكذا مثل النساء، لكنهم في الحقيقة

رجال وليسوا نساء، بل قل أشباه للرجال، وأشباه للنساء معاً.

ضحكت أنا هذه المرة بصوت مجلجل و صفقت يداً بيد ، وقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم أخرجت قلمي وكتبت لها عنواني في فندق (نيكو) الذي أسكن فيه من أجل أن نلتقي في مرة ثانية بعيداً عن صديقها ذاك ، وبعد أن قرأت العنوان وعدتني بأن تزورني ظهر اليوم التالي ..

وقبل ظهر اليوم التالي حضر إلى غرفتي في الفندق رئيس وفدنا ليبلغني بأن علينا أن نتوجه فوراً إلى مبنى السفارة لأننا سننطلق من هناك إلى دار السفير تلبية لدعوة على الغداء يقيمها السفير على شرف وفدنا.

لم يكن من المناسب أن أعتذر ، غادرنا الفندق وتوجهنا إلى حيث يجب أن نكون ، وهناك في دار السفير كان الوقت يمر سريعاً وأنا أكظم غيظي وألعن في سري تلك الصدفة التي جعلت هذه الدعوة تأتي في وقت يفترض أن أكون فيه بالانتظار هناك في الفندق .

ثم، وفور عودتنا إلى الفندق سلمني رجل الاستقبال مع مفتاح الغرفة رسالة جاء فيها :

" عزيزي " ...

حضرت ، وكنت لوحدي مثلما وعدتك لكنك ، مثل كل رجل شرقي ، لا تحترم موعداً مع امرأة لأن هناك الكثيرات.. لذلك أقول وداعاً، وأتمنى لك إقامة سعيدة في باريس.. وتحياتي إلى بلاد العرب، جميعها بلا استثناء..

التوقيع

م.م

وابتلعت الطعم في بيكال ..!

إذا كان المثل الإنكليزي يقول "إن المسافر يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شيء ، وأذنا حصان ليسمع كل شيء ، وفم خنزير ليأكل أي شيء، وظهر جمل ليتحمل أي شيء ، وساقا معزة لا تتعبان من السير"، فأنا قبلت بذلك كله، وحرصت على الأخذ به باستثناء ما يتعلق بالأكل..!

فالأكل هو مشكلتي التي لا حل لها أبداً، فعلى الرغم من أن المطاعم الثلاثة في فندقنا الجميل تقدم مختلف أنواع الأطعمة و أغلاها ثمناً ، وهي مفتوحة لوفدنا دون مقابل، أي دون أن ندفع شيئاً من جيوبنا، إلا أنني ومنذ عدة أيام أخرج لأبحث عن مطاعم أخرى تقدم أكلات شرقية أدفع إزاءها عشرات " الفرنكات " من جيبي الخاص دون أن أندم بالطبع لأنني لم أعد أتحمل أبداً ذلك الجوع وسط تلك المأكولات التي لا تعترف بها معدتي، ولا تتقبلها أبداً ..!

ولأن الأمر أصبح واضحاً أمام الجميع فقد راح زملائي يدلوني كل يوم على مطعم جديد اكتشفوه هنا أو هناك ويقدم أكلات شرقية أو عربية خالصة ، و من النوع الذي أبحث عنه.

وفي صبيحة أحد الأيام فاجأني زميل لي عند الفطور في أحد مطاعم الفندق تلك بنصيحة حيث همس في اذني ليقول " لا تأكل كثيراً، لأننا سنأكل عند الغداء اليوم فاصولياء بيضاء مطبوخة بالطريقة التي تحبها"..!

لم أُصدق في بادئ الأمر وحسبته يمزح ، لكنه بدا جدياً فعلاً وقال : اترك الأمر لي، ولا ترتبط بأحد ظهراً..

وعند الظهر كان زميلي ينتظرني عند بوابة الفندق ، ثم طلب

سيارة "تاكسي" ، وحضرت "التاكسي" وكانت تقودها امرأة في خريف عمرها، وإلى جانبها كلب ضخم يشغل المقعد الأمامي للسيارة ووجهه إلى الخلف - أي نحونا - ولسانه يتدلى وعيناه تراقبان بحذر .. ترددت في الصعود أولاً، لأنني أخاف الكلاب فعلاً ، غير أن المرأة السائقة تنبهت إلى ذلك فتحدثت إلى الكلب بكلمات قليلة راح بعدها هذا الأخير ليترك المقعد ويغطس بكل هدوء ويجلس عند أرضية ذلك المقعد دون أن نراه حتى لحظة وصولنا إلى تلك المنطقة التي أسماها زميلي "بيكال"..

دفعنا الأجرة، وتركنا السيارة، ورحنا نقطع المسافة المتبقية نحو ذلك المطعم سيراً على الأقدام.

وفي الطريق إلى "الفاصولياء" الموعودة كنت وزميلي نستخدم "عيون الصقر" بكل مداها، لكننا تخلينا عن آذان الحصان وتحاشينا تماماً تلك الكلمات التي كانت تدعوننا لقضاء أمتع الأوقات في أحضان دافئة هنا أو هناك وبـ " أسعار " مناسبة..!

غير أن إحداهن أبت إلا أن توقفنا رغماً عن أنفينا، فجاءت في مواجهتي تماماً وأحاطتني بذراعيها وهمت بمحاولة تقبيلي ولو بالقوة، لتتركني في دهشة جعلتني أتلفت يميناً وشمالاً وأنا مذهول لا أعرف ماذا أفعل..

وفي هذه اللحظة بالذات شعرت أن يدها التي أحاطتني استقرت في جيب بنطالي الخلفي، وقبل أن تهم بإخراجها منه أمسكت يدها وأبقيتها في مكانها، وعبثاً حاولت التملص وإخراج يدها المتلبسة بالجرم المشهود، وقبل أن أفتح فمي لأطلب رجل الشرطة راحت تتوسل بعيون دامعة وتحاول تقبيل يدي الأخرى وترجو مسامحتها وتركها.. وبسبب من "الدموع" تلك، وليس غيرها ، تركت يدها وطلبت منها أن

تختفي فوراً والا فسألعن "سنسفيل" أجدادها وأجداد من دفعها لارتكاب معصيتين في آن واحد ، البغاء المبتذل والسرقة المفضوحة والعياذ بالله..

المهم، ها هو المطعم الذي جئنا إلى "بيكال" اللعينة من أجله ، إنه مطعم صغير جداً لا تزيد مساحته على (١٢) متراً مربعاً، لكنه مطعم منظم وجميل جداً رغم أنه مختصر.. جلسنا على طاولة في إحدى زاويتيه وطلب صاحبي أكلتنا المفضلة تلك، وبعد دقائق قليلة جاء النادل بصحن الفاصولياء والى جانبه صحن آخر وضع فيه الرز بطريقة معينة وفوقه شريحة لحم صغيرة ..

أكلت بشراهة ونهم، فهي الفاصولياء التي أعشقها عشقاً غريباً حتى وإن كنت في باريس، بل وفي الـ "بيكال" نفسها ، وبعد الانتهاء من الأكل سألني صاحبي: والآن ، ما هو رأيك..؟

أجبت : إن لك أجراً عظيماً عند الله .

قال : هل كانت لذيذة ..؟

قُلت : وهل يحتاج ذلك إلى سؤال.. ؟!

قال : ليست الفاصولياء .

قُلت: وماذا إذن..؟!

قال : قطعة اللحم التي كانت فوق الرز .

قُلت : أجل ... أجل، إنها لذيذة جداً ومطبوخة بطريقة جيدة .

قال : بالهناء والشفاء إذن ، إنه لحم خنزير يا عزيزي ..!

وهنا غص فمي و كادت معدتي تقذف كل ما ابتلعته ، فقد تحول الطعام الشهي ذاك إلى سم زعاف يعصر معدتي عصراً ..

● ماذا تقول ، لحم خنزير .. ؟!

- أجل، ما بالك ، ألم تقل منذ لحظة إنه لذيذ جداً.. ؟!

● ولكنه الخنزير يا ابن الخن.... ثم ، لماذا لم تقل لي من البداية..؟!

- وكيف كنت ستتذوقه لو قُلت لك منذ البداية.. ؟

● يا لك من آثم كافر، تجعلني آكل لحم خنزير، ومن ثم أدعو لك بالأجر العظيم.. ؟!

ضحك، وضحكت من مقلبين في يوم واحد.. مقلب الفتاة السارقة ومقلب الفاصولياء بلحم الخنزير.. !

أنا والموناليزا واللوفر..

ليس من المعقول أبداً أن تكون في باريس دون أن تفكر بزيارة متحف اللوفر.

فالمتحف هذا هو الأغنى في العالم، بل هو الأشهر على الإطلاق، أما عمره الزمني فيمتد إلى عام (١٧٩٣) يوم تحول بعد الثورة الفرنسية من قصر ملكي كان قد شيد عام (١٥٤٦) في عهد الملك فرانسوا الأول إلى متحف سرعان ما أصبح رمزاً مهماً جداً من رموز باريس، بل وفرنسا كلها ..

فالحديث عن فرنسا لا يمكن أن يكتمل أبداً دون الحديث عن اللوفر، والعكس صحيح أيضاً .. إنه أحد أبرز معالم هذا البلد المسكون بعبق التاريخ كله .

فهنا، في داخل هذا المتحف، ستتصور نفسك وكأنك تمتطي ذلك الحصان الأبيض الطائر الذي يحلق عالياً ليعود بك إلى تلك الحقب الزمنية الأكثر سطوعاً في التاريخ ، فعبر التجوال في صالات اللوفر ستمر على ذلك الجناح الخاص بآثار بلاد ما بين النهرين ، بكل ما فيها من حضارات العراق القديمة في بابل وآشور وسومر ، ثم تمر أيضاً على جناح آخر خاص بالآثار المصرية القديمة وثالث يخص الآثار الإغريقية والرومانية ورابع مخصص للفن الإسلامي وخامس يعرض فنون النحت في القرون الوسطى وحتى العصر الحديث ..

ومع أني لست من المهتمين كثيراً بشؤون الحضارات تلك وآثارها إلا أنني وجدت نفسي مشدوداً بطريقة غريبة إلى تلك الأجنحة الخاصة بعرض الآثار التي جاءوا بها من بلاد العرب، فهناك مثلاً شعرت

وكأنني في مدينة بابل، أتجول في شوارعها واتنقل بين أحجارها وأطوف عند بوابتها الخالدة وأقف مندهشاً أمام جنائنها المعلقة، انتابني إحساس من الألم وأنا أتساءلُ في داخلي، كيف أنتقل كل ذلك إلى هنا في باريس التي تبعد آلاف الأميال عن العراق، كيف صارت الآثار تلك ملكاً لغير أصحابها، ومن الذي سمح في أن تعرض آثار بابل في غير بابل والعراق، وآثار مصر في غير مصر، وآثار الإغريق في غير اليونان.. ؟!

لا أعرف، ولا أدري أن كان ذلك قد حصل عن طريق البيع والشراء أم بطريقة أخرى، لكنني أرى وكأن الأمر أشبه بسرقة، بل هي السرقة بعينها سواء حصلت بالبيع والشراء أم بطريقة غيرها، فالآثار العظيمة تلك يجب أن تكون ملكاً لشعوبها، ولشعوبها فقط دون غيرهم أبداً ..

المهم، هذا هو جناح بلاد ما بين النهرين، وفي الحقيقة لم أشهد منه الكثير، فقد كانت بعض الآثار مغطاة بقطع من القماش وأخرى ركنت خلف ألواح خشبية، وعندما سألت عن السبب قالوا لي إن الجناح تحت الصيانة.. و بالمناسبة فإن أحد الأصدقاء هناك أخبرني بعد حين أنه كان قد زار اللوفر مرتين في عامين مختلفين فوجد الجناح هذا تحت "الصيانة" أيضاً في كلتا المرتين..!

وإذا ما كانت تلك هي أجنحة الحضارات العظيمة فإن اللوفر يضم أيضاً جناحاً عملاقاً يحوي ستة آلاف لوحة فنية تمثل أروع ما أبدعه أساتذة الرسم على اختلاف مدارسهم الفنية أو مذاهبهم .. أما اللوحة الأهم والأبرز هنا فهي التحفة الخالدة للفنان العظيم (ليوناردو دافنشي) المسماة بـ " الموناليزا " أو "لاجوكوندا" .

والموناليزا هنا موضوعة داخل صندوق زجاجي محاط بحراس خاصين مهمتهم حماية هذه اللوحة تحديداً ، والحماية هذه مشددة بالطبع ، فقد سبق لهذه اللوحة أن سرقت من قبل وفقاً للروايات الخاصة بها.

وعند الصندوق الزجاجي ذاك كُتبت جملة تقول: ممنوع التصوير، والتصوير ممنوع لسبب منطقي، فأشعة الضوء المنبعثة من الكاميرا يمكن أن تؤثر بمرور الايام على الوان اللوحة، لذلك فأنهم لا يسمحون بأستخدام الكاميرات في هذا الموقع من المتحف.

وبيني وبينكم، فقد كنت أرى من غير المعقول أن أصل إلى الموناليزا دون أن التقط معها صورة للذكرى ، ولكن كيف..؟!

أحترت كثيراً، و أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أطالعها وذهني مشغول في كيفية تحقيق مثل هذا "الإنجاز" التاريخي في التقاط صورة ثمينة مع الموناليزا..

كانت ألكاميرا في يدي بانتظار من يساعدني في أداء تلك المهمة التي وجدت نفسي مصراً ومصمماً على إنجازها مهما كان الثمن..!

وبكلمة من هنا وأخرى من هناك استطعت أن أُقنع أحدهم من زوار المتحف ليقف في الزاوية البعيدة ويلتقط لي الصورة من بعيد دون أن يثير انتباه أحد ، وقفت إزاء الصندوق الزجاجي بانتظار الفرج، و ما هي إلا لحظات وتم كل شيء دون أن يشعر أحد ، شكرت الرجل كثيراً وكنت سعيداً جداً ، فالكاميرا في يدي وفي داخلها صورة لي مع الموناليزا ..

وخوفاً من أن يُكتشف الأمر ويفسد كل شيء حرصت على أن لا أطبع الفيلم في باريس.

وعندما عـدت إلى بلدي توجـهت فـوراً إلى أقـرب اسـتـديـو لغـسل الفلم وطبعه.. كـان الفيلم سليماً جداً والصور رائعة بـاستثناء صورتي مع الموناليـزا ، فـقـد ظهـر الصنـدوق الزجـاجي الذي يحـيط بـاللوحـة وكأنه قطعة سوداء قاتمة تماماً..

سـألت صـاحب الاستـديو بعـد أن شـرحت له الأمـر فأجـابني جـواباً منطقـيـاً جـداً عندمـا قـال إن الـزجـاج الذي يحـيط باللـوحـة إنما هو زجاج عاكس للضوء..

بمعنى آخر أنهم لم يكتفوا هناك بالتنبـيه إلى أن التصوير ممنوع بل وضـعـوا زجـاجـاً خـاصـاً يفـسـد مـحـاولات عـشـاق الموناليـزا ممن يحاولون بطريـقة أو بأخرى تجاوز التعليمـات الخاصـة التي أرادوا بها الحفاظ على القيمة الفنية العظيـمة للوحة يبلغ سعرها اليوم ملايين الدولارات إذا ما تم عرضها للبيـع ..!

كوريا الجنوبية ...

هكذا هي سيؤل وهؤلاء هم أناسها..

ليس من الإنصاف أبداً أن ننسب دولة متقدمة مثل كوريا الجنوبية إلى العالم الثالث، ملامحها لا تختلف أبداً عن ملامح أية دولة من تلك الدول التي جعلوها في الصف الأول في التصنيف العالمي إن لم نقل إنها قد تتفوق في الملامح تلك على بعض من تلك البلدان .

وإذا ما كان في أميركا، مثلاً، ناطحات سحاب وشوارع فارهة وصناعات متطورة ومستوى معاشي رفيع ، فإن فيها أيضاً بيوتاً من الصفيح ، وأناساً يعيشون فقراً مدقعاً ، غير أن شيئاً من ذلك لم أشاهده هنا في سيؤل تلك العاصمة الجميلة المترفة والغنية وذات الصبغة الخضراء ، إنها تبدو وكأنها حديقة عملاقة ، فليس من شبر من الأرض إلا ويقوم فوقه صرح عمراني رائع أو أنه قد تحول إلى عشب أخضر تحيطه أشجارٌ وارفة الظلال تمتد بأغصانها إلى مساحات واسعة لتظلل الأرض ومن فوق الأرض.

وقبل وصولنا إلى هذه العاصمة التي تقع عند الشمال الآسيوي بين بحري اليابان والأصفر كنا نعتقد أنها لا تختلف كثيراً عن غيرها من المدن الآسيوية الأخرى ، لذلك فإننا ذهبنا إلى أن السفير الكوري كان يبالغ كثيراً عندما راح يتحدث بمباهاة عن سيؤل التي ستحتضن الأولمبياد العالمي وذلك خلال الحفل الذي أقامه لوفدنا قبيل المغادرة للمشاركة في الأولمبياد ذاك .

غير أنك وبمجرد أن ترمي ببصرك من نوافذ تلك الطائرة صوب المدينة التي ستهبط إليها بعد قليل ستجدك وقد عدت إلى تلك الكلمات التي قال فيها السفير "إن سيؤل من أجمل مدن آسيا، بل ومن بين أجمل مدن الدنيا".. وفي المطار الواسع والجميل المكتظ بالحركة ستكتشف لأول مرة بأن رجال الشرطة ليسوا منبوذين دائماً وفي كل

مكان ، فعلى العكس من تلك الوجوه العابسة والمتجهمة التي تحملق في وجهك بعيون غاضبة في معظم مطارات الأرض وكأنها تبحث فيك عن رجل مطلوب للعدالة، أقول على العكس من ذلك ستجد في سيؤل أنك محاط دائماً بابتسامات وتحيات وانحناءات من أناس يسمونهم شرطة أيضاً وهم رجال ونساء يرتدون بزات زرقاء وكأنهم مضيفون جاءوا لخدمتك فعلاً وليس لإخافتك أو ابتزازك أو إثارة الضجر والقرف عندك.

وعندما قُلت لرجل السفارة الذي كان يستقبلنا في المطار بأن تلك هي أخلاق الأولمبياد أو أنها قد صنعت خصيصاً لذلك، أجاب : أبداً، فالكوريون هكذا باستمرار، إنهم أُناس طيبون جداً ومهذبون جداً.

وبأسلوب متحضر جداً وبديناميكية رائعة أنجزنا متطلبات الدخول بسرعة مذهلة قياساً لما هو الحال في المطارات الأخرى، ووجدنا أعداداً كبيرة من الشباب والشابات الكوريين وهم يستقبلوننا عند باحة المطار حيث الورود والابتسامات و تلك الانحناءات التي تصيبك بـ "الخجل" وتجعلك تلف برأسك يميناً وشمالاً وكأنك تبحث عمن يعدل تلك الظهور ويخلصك من إحراجات هذا "الأدب" الذي لا حدود له .

وفي الطريق إلى القرية الصحفية التي كانت قد بنيت خصيصاً لرجال الصحافة الذين جاءوا من كل بقاع الأرض لتغطية أحداث تلك الدورة الأولمبية، كانت السيارة تقطع طرقاً واسعة وجميلة حيث لا ضجيج رغم كل ذلك الزحام الشديد ولا غبار أو أتربة، ولا أي من تلك المنغصات التي تملأ شوارع الأرض وطرقاتها ، فنظام السير هنا في

أعلى درجات الرقي والانضباط ، وليس من سائق يمكن أن يزعج آخر ، وليس من أحد يمكن أن يخرج عن تلك الضوابط التي جعلت تلك المركبات تنساب بلا اختناقات برغم أعدادها التي لا تحصى .

وإذا ما كان سائقنا قد ارتبك قليلاً عند أحد المنعطفات، فإن ذلك كان بسبب تلك المركبة الصغيرة التي راح يفسح لها الطريق لمجرد أن سائقها قد استخدم إشارته الضوئية (الفلاشر) وليس زعيق المنبه أو السباب أو الشتم بلغة الأصابع والعيون و الشفاه التي يستخدمها عادة السائقون الآخرون في أماكن ومدن أخرى غير سيؤل.. و (الفلاشر) هنا لا يستخدم اعتباطاً أو لمجرد اللهو أو " الفرجة " إنما هو يستخدم في الحالات الطارئة الحقيقية ويثق السائقون بصدق استخداماتها لذلك فإنهم يلتزمون التزاماً ذاتياً بفسح الطريق لتلك المركبة بحيث تجد الطريق أمامها سالكة للوصول إلى مبتغاها بأقصى سرعة وبدون أية مزاحمة من الآخرين .

ثم وصلنا إلى القرية الصحفية.. هي ليست قرية بالمعنى المألوف ، إنها مدينة سكنية مؤلفة من عدة بنايات ذات طوابق متعددة وفيها مطاعم ومستشفى وأجنحة أخرى للخدمات إضافة إلى حدائق واسعة، لكنهم أسموها مجازاً "قرية" وفقاً للتقاليد الأولمبية .

وفي قاعة كبيرة مخصصة للاستقبال كانت هناك جموع غفيرة من الصحفيين قد وصلت قبلنا وبدأت تمارس مهامها وتبعث برسائلها من ذلك المركز الإعلامي الواسع المزود بأحدث وسائل الاتصال وأكثرها تطوراً .. وعلى الرغم من ضجيج " الطلبات " التي لا تنتهي لأولئك الصحفيين الذين راحوا يستغلون " طيبة " المضيفين ليتمادوا في طلباتهم تلك إلا أن أحداً من أصحاب الدار لم يضجر أو يتأفف أو يقطب له جبين ، بل على العكس ، كانت الابتسامات هي التي

تتحدث والانحـنـاءات سيدة الموقف ، بل قل إنها إحـدى أهم ميزات دورة سيؤل الأولمبية ، ولكي أوضح شيئاً عن ماهية تلك الانحناءات ومـدى الجـهـد المبذول فـيـهـا ، أنـقـل لك مـثـالاً بسيطاً من بـين أمـثلة عـديدة تخص هذا الجانب تحديداً .

فهناك، في ذلك المطعم الفخم والواسع الخاص بالقرية الصحفية ستجد أربع فتيات وأحياناً ستاً يقفن عند البوابة التي يمر عبرها أكثر من أربعة آلاف صحفي يدخلون ويخرجون مع كل وجبة من وجبات الطعام الرئيسية، أما مهمة هؤلاء الفتيات فهي الانحناء فقط للداخل والخارج، وليس من واحدة منهن شكت أو تعبت أو تململت أو أمسكت ظهرها جزعاً أو ألماً بالرغم من أنهن يؤدين تلك المهمة صباحاً وظهراً ومساءً خلال اليوم الواحد.

وبحسبة بسيطة تجد أن الفتاة الواحدة منهن تنحني أكثر من (٢٠) ألف مرة في اليوم الواحد، ونحو (١٤٠) ألف مرة في الأسبوع و (٥٦٠) ألف مرة خلال أيام الأولمبياد الذي استمر نحو شهر، ذلك إذا ما استثنينا طبعاً تلك الانحناءات الزائدة التي كانت تتكرر بسبب أحد زملائنا الذي استأنس الأمر فراح يدخل و يخرج أكثر من مرة خلال الوجبة الواحدة ليس طمعاً بالطعام بل بالانحناءات التي فتنته كثيراً بحيث وصفها بأنها أجمل ما في الأولمبياد ..!

وكان الله في عون فتيات كوريا الجميلات وعون أزواجهن الذين لا بد وأنهم كانوا يمضون الليالي خلال تلك الأيام في تدليك تلك الظهور وهي تئن تحت وطأة تلك المهمة البسيطة في شكلها والرائعة في معانيها والصعبة جداً في ممارستها بتلك الطريقة المتكررة التي تتعب القلب والظهر معاً.

أرقى طب أسنان في العالم ولكن ..!

ولأن الحلو لا يكتمل مثلما يقولون ، فقد كان لا بد وأن تجد هناك ما ينغص عليك متعتك أو يفسد شيئاً من تلك الصورة الجميلة التي بدأت ملامحها تكبر وتتضح في ذهنك عن سيؤل الجميلة وأهلها الذين يمتازون بمنتهى الطيبة والأدب .

فعلى الرغم من كل تلك المحاولات التي بذلتها كوريا لتجعلك تخرج منها بأطيب وأحلى الانطباعات ، وأن لا تزعجك مثلاً مشاهدة لحوم الكلاب وهي تباع في محلات بيع اللحوم فذهبت إلى منع ذلك خلال أيام الأولمبياد ، أقول برغم كل ما فعلته كوريا ونجحت فيه إلا أنها لم تستطع أن تعالج أو تتخلص من تلك الصور التي تجعلك تصاب بشيء من الاشمئزاز ..

ففي الشارع أو المطعم أو حيثما تذهب ستلاحظ أن العديد من النساء الكوريات يلجأن إلى وضع أكفهن على الفم عند التحدث إليك.

في البداية لا تعرف السبب ، وستتصور أن الأمر ليس أكثر من شيء من الحياء أو الخجل البناتي، غير أنك ستكتشف لاحقاً أن هناك سببين ، الأول يعود لرائحة الفم، والثاني يتعلق بتركيبة الأسنان الغريبة عند أغلب الكوريين والنساء منهم على وجه التحديد ..!

أما رائحة الفم فتعود إلى مبالغة معظم الكوريين في تناول "الثوم" الذي يدخل في إعداد جميع أنواع الأطعمة بما في ذلك المعجنات مثلاً ..!

وأكثر، فإن الكوريين عموماً يعشقون لحوم الأسماك التي يأكلونها بطريقتهم الخاصة، فلك أن تتصور مثلاً ذلك الشاب الذي يتأبط ذراع عشيقته في الشارع أو الملعب أو الحديقة وفي يد كل منهما

"قرص" يشبه رغيف الخبز هو عبارة عن سمكة "مكبوسة" محمصة ومنقعة بالثوم والتوابل ويأكلونها بالطريقة التي نأكل فيها نحن أقراص البطاطس ..!

والمشكلة أن السمك المحمص هذا يباع في كل مكان، تماماً مثلما يبيعون عندنا الشكولاته أوالفستق في الشوارع والطرقات ، والكوريون يعشقون أكلتهم المفضلة هذه رغم إدراكهم لإفرازات روائحها التي ستجعل الآخرين يضربون الأرض بأقدامهم وهم يلعنون السمك والثوم إلى يوم الدين ..!

وإذا ما كان الكوريون قد انتبهوا إلى ذلك الاشمئزاز عند الاخرين بحيث لجأوا إلى وضع الأكف على الفم عند التحدث فإنهم ، والنساء منهم على وجه التحديد ، يخجلون أيضاً من أسنانهم المشوهة بطريقة تثير الاستغراب ..

فمن النادر أن تجد هنا رجلاً أو امرأة تمتلك أسناناً مصفوفة بشكل طبيعي ، إنها مزروعة في اللثة بطريقة فوضوية تماماً ، أي أن الخالق سبحانه وتعالى لم يخلق أسنانهم مثلما خلقها عند الآخرين بل رمى بها في الفم لتستقر حيثما تسقط دون تنظيم أو ترتيب ..!

والغريب أن هذا يحدث في بلد يقال إنه يمتلك أرقى طب اسنان في العالم..

أما لماذا أرقى طب أسنان في العالم فإن ذلك، وفقاً لما يُقال، لا يعود فقط إلى ذكاء الكوري أو فطنته بل وأيضاً إلى تكوين كفه الصغيرة التي يمكنها أن تتحرك عند الفم بكل سهولة لتمارس مهمتها على أفضل وجه وذلك أمر يحسدهم عليه أطباء الأسنان في كل مكان دون أن يعرفوا أن الأكف الصغيرة هذه التي تعالج مشاكل

الأسنان عند الآخرين قد عجزت عن معالجة مشاكل أسنان أصحابها..!

وإذا ما كان الشيء بالشيء يذكر فأنا أحدثكم عما أصابني في تلك الصالة خلال إحدى نزالات الملاكمة في الأولمبياد .

كنت أجلس مع زملائي في الموقع المخصص للصحفيين عند الصف الأعلى في الصالة .. وكانت هناك مجموعة كبيرة من الشباب والشابات وفي يد كل منهم ذلك القرص المحمص، وبين صيحات التشجيع والضحكات العالية لذلك الجمهور كانت رائحة ذلك القرص تضرب في الرأس تماماً، والمشكلة أن احدهم كان يحمل كيساً فيه الكثير من الأقراص تلك وهو يوزع على جماعته بين الحين والآخر.. !

بعد لحظات فقط شعرت بصعوبة في التنفس ، وشيئاً فشيئاً بدأت أختنق، فنهضت مسرعاً وكأنني أبحث عن هواء لأتنفسه .. توجهت فوراً إلى جهاز تكييف لأكون في مواجهته بحثاً عن الهواء ، ثم خرجت من الصالة ليلحق بي زملائي وهم يستفسرون عما حدث ، طلبت من أحدهم أن يرافقني إلى المركز الطبي الخاص بالقرية الصحفية لأنني لا أعرف بالضبط ما الذي كان قد حدث لي .

وهناك راح الكادر الطبي يجري فحوصاته بكل عناية ، غير أن الجميع اتفقوا على أن حالتي الصحية طبيعية جداً وأن ما حدث لي ليس أكثر من اضطراب نفسي يعود لسبب أو لآخر.. وقبل أن أغادر المركز الطبي اقترح علي أحد الأطباء أن استخدم على مدى يومين فقط دواء معيناً على سبيل الاحتياط.

استلمت الدواء ، وكان عبارة عن قنينة جميلة الشكل تشبه تماما قنينة عطر ، وعندما عدت إلى السكن كان هناك زميل آخر ممن كانوا

معي في الصالة قد سبقني إليه ، لم يسألني عن صحتي أو عن رأي الطبيب بما حدث بل سألني عن هذا الذي أحمله بيدي فأجبته بشيء من الخبث وباندهاش مصطنع : ماذا، ألم تحصل على حصتك منه..؟!

- قال : أية حصة ، ومن أين يأتون بها .. ؟!

● أجبت: عطور، إنها عطور ثمينة توزعها إحدى الشركات الشهيرة مجاناً للصحفيين على سبيل الدعاية.

- أين ..؟

● هناك عند الاستقبال ، فقط أبرز هويتك الصحفية وستحصل على نصيبك منها .

قُلت ذلك بطريقة جادة وبتأييد من زميلي الآخر ثم توجهت إلى الحمام .. وبعد دقائق ، مجرد دقائق، فوجئت بطرق على باب الحمام ، وكان الطارق هو زميلنا الباحث عن العطور إذ جاء ليلومني ويعاتبني بشدة لأنني قد وضعته في موقف محرج للغاية عندما جعلته يذهب إلى استعلامات القرية الصحفية ليطالبهم بحصته من " العطور " وسط استغراب ودهشة العاملين في الاستقبال هناك ..!

ضحكتُ كثيراً، وفوجئت كثيراً لأنني لم أكن أتوقع أبداً مثل هذه السرعة التي دفعت بصاحبي للتوجه إلى مركز الاستقبال بحثاً عن حصته من "العطور"..!

ففي الحقيقة كنت أنوي توضيح الأمر له بعد الخروج من الحمام لكنه كان متسرعاً جداً فاختار بنفسه أن يكون في ذلك الموقف المحرج الذي لا ألام عليه أبداً لأنه لم يكن بالنسبة لي أكثر من مزحة بريئة..

في الطريق إلى تايجون ..

كان يجب أن نكون في مدينة تايجون عند الساعة الرابعة عصراً ، وهو موعد مباراة منتخبنا أمام منتخب زامبيا بكرة القدم .. ولأن الطريق إلى تايجون يستغرق نحو ساعة ونصف الساعة بالقطار فقد خرجنا من السكن في سيؤل عند الساعة الواحدة ظهراً على أمل أن نأخذ قطار الساعة الثانية ظهراً . وفي سيارة الأجرة كنا نتصور أن السائق قد فهم وجهتنا لأنه هز رأسه بالإيجاب وهو يبتسم عندما قلنا له " إلى محطة القطار و بسرعة رجاءً " ..

كان السائق صامتاً لا يتكلم ، وكان الطريق الذي يسلكه قد بدا غير الطريق الذي سلكناه في المرات السابقة ، في البدء تصورنا أنه يختصر الطريق ، فهو ابن المدينة وهو الأدرى بطرقاتها ، غير أن الوقت يمضي والسائق يسير دون أن تبدو أمامنا أية ملامح للمكان الذي نقصده ..!

سألناه إن كان متأكداً بأن هذا هو الطريق الصحيح ، لم يتكلم ، فقط كان يبتسم ويهز رأسه بالإيجاب، أما نحن فقد بدأت أعصابنا تتوتر .. أعدنا السؤال مرة ثانية، هل أنت متأكد أن هذا هو الطريق الصحيح، ابتسم وهز رأسه من جديد، ثم ثالثة ورابعة والنتيجة واحدة .. هو يبتسم ونحن نغلي لأن الوقت بدأ يدركنا ذلك أن عدم وصولنا إلى محطة القطار في الوقت المناسب يعني أننا لن نشاهد المباراة التي يتوجب علينا نقل تفاصيلها إلى صُحفنا ..

ثلاثون دقيقة مرت ونحن في الطريق الذي كنا نقطعه بنحو ربع ساعة فقط ..!

لم تعد ابتسامته وأدبه الجم تكفيان لتهدئة أعصابنا ، لا بل إن برودته هذه أثارت في دواخلنا براكين من الغضب ، لذلك فقد أمسكت

يده وطلبت منه أن يتوقف .. خرجت من السيارة ثم استدرت إلى الناحية الأخرى وطلبت منه النزول .. نزل والدهشة تملأ عينيه وكأنه لا يدري ما الذي حصل .

وبين كلمة غاضبة مني وأخرى من زميلي راح السائق يدور برأسه بحثاً عن تفسير لغضبنا وتوتر أعصابنا .

سألته : إلى أين تذهب بنا .. ؟ لم يجب .

لماذا لا تتكلم .. ؟ لم يجب ، فقط كان ينظر بعينين مندهشتين ..!

سحبه زميلي جانباً وراح يطرح عليه السؤال ذاته بأسلوب آخر في حين رحت أنا أبحث عن سيارة أجرة أخرى أو أية سيارة يمكن أن تنقذنا من هذه الورطة .

وبمجرد أن أشرت لسائق شاب يقود سيارة خاصة إلى الساعة التي في يدي فهم القصد وتوقف .. حدثناه عما حصل ثم راح هو يتحدث مع سائق سيارة الأجرة الذي اتضح أنه لا يفهم الإنكليزية إطلاقاً وأنه عندما كان يهز رأسه فلأنه كان يعتقد أن وجهتنا هي مطار سيؤل، وأنه يسير بنا فعلاً في الطريق المؤدية إلى المطار..

اعتذر الرجل كثيراً ، وانحنى كثيراً كثيراً وكأنه يعاقب نفسه على فعلته تلك ، ثم طلب منا أن نصعد إلى سيارته من جديد ، فانطلق بأقصى سرعة لنصل إلى المحطة قبل خمس دقائق فقط من حركة القطار، وذهب الرجل بنفسه ليقطع لنا التذاكر ثم قادنا إلى العربة ليودعنا بابتسامته المعهودة تلك رافضاً استلام أجرته بل وحتى ثمن تذاكر القطار التي دفعها من جيبه..

هذا ما حدث في ملعب تايجون ..!

وفي الملعب الرئيسي لمدينة تايجون كان يجلس إلى جانبنا في الموقع المخصص للصحفيين رجل بملامح أفريقية واضحة ، كان الرجل يحمل جهاز تسجيل صغيراً وفي يده مايكرفون مرتبط بذلك الجهاز .

وقبل أن تبدأ المباراة كان الرجل يجرب صوته ثم يعيد ويجرب ثم يعيد ، وكان في كل مرة يؤشر لنا بيده راجياً أن يكون صوتنا غير مسموع لكي لا يؤثر على سلامة التسجيل .. وفعلاً بدأنا نتهامس في الحديث نزولاً عند رغبته ، لا بل كنا نؤجل التحاور في بعض الملاحظات حرصاً على رغبته..

ثم بدأت المباراة ، وبدأ صاحبنا يعلق على أحداثها بصوت مرتفع ، لا بل إنه بدأ يتفاعل مع تلك الأحداث كثيراً حيث كانت قدمه تتحرك باستمرار وكأنه يريد أن يركل الكرة .. وبين الفينة و الأخرى كان يتناول جرعة ماء، وأغلب الأحيان كان ينهض من مقعده ليصرخ بصوت عالٍ ثم يعود ليجلس بكل هدوء وهو يتلفت يميناً ويساراً وكأنه يقرأ العيون التي تراقب صرخاته تلك..!

كان منسجماً كثيراً مع المباراة، و بدا في بعض الأحيان وكأنه يهم بالنزول إلى الملعب ، وفي أحيان أخرى كان يبدو وكأنه يشتم لاعباً ما لأنه ارتكب الخطأ، ومع تقادم سير المباراة ازداد انفعالاً وراح يصرخ بأعلى صوته وكأنه يوجه حديثه إلى المدرب البعيد وكذلك إلى أحد اللاعبين داخل المعلب..!

وبسبب من انفعالاته تلك وانسجامه مع أحداث المباراة راحت الدموع تنزل من عينيه عقب الهدف الثالث الذي أصاب مرمى منتخبه، إنه يبكي فعلاً، بل وأصبح يبكي بصوت مسموع.. وبين

الصـرخـات تلك والدمـوع حـدث أن تمكـن فـريقـه مـن أن يسـجل هـدفـاً أفقده صوابه وجعله يقفز من مقعده ليسقط جهاز التسجيل من فوق الطـاولة ويـنفـــتق بنـطالـه دون أن يـدري وسط ضـــحكـات الآخــــرين وتعليـقـاتهم التي لم ينتبـه إليـهـا أبداً ولم يعـرها شيـئـاً من اهتـمامـه المنصب فقط على احداث ما كان يجري داخل الملعب..!

وبينما كان منشغلاً بأحـداث المباراة تلك كان الآخرون منشغلين بـه هو لأنه في الواقع كان هو حدث المباراة الأهم لا سيما وأن المباراة بدت وكأنها غير متكافئة وهو أمر جـعل الكثيرين ينصرفون عنها ليتحولوا إلى مـشاهدة ذلك الـعرض الكومـيـدي الذي يدور على هامـشهـا هنـاك عند الموقع المخصص لرجال الاعلام..

المهم، وبمجـرد أن انتـهت المبـاراة راح صاحـبنا يبـحث عن صوتـه في جهـاز التسـجيل فكانت المفـاجأة.. والمفاجـأة هنا هو أن جهـاز التسـجيل ذاك لم يكن يـعمل طوال زمـن المبـاراة، فـقـد نـسي أن يضـغط على زر التسجيـل لأنه انشغل على ما يبدو بالمايكرفون الذي سرق لـبه وأفقده صوابه وتسبب في تمزيق بنطاله..!

كنا نعتـقد أن الرجل سيـتألم كثـيراً لأنه في الحقـيقة كان قد بذل جهـداً كبيراً وهـو يعلق على المباراة تلك ، لكنه كان يضـحك وكأن شيـئـاً لم يكن.. وعنـدمـا سـألناه أجـاب بـأعـصـاب باردة تمامــاً بأن ذلك ليس مهماً ، لأن بإمكانه أن يعيد المحـاولة من جديد في مباراة أخرى يجرب فيها إمكاناته في التعليق ..

قُلنا : مــاذا تقـول ، تجــرب إمكاناتك في التـعليق، تعنـي أن كل مـا حدث هو مجرد تجربة ..؟!

قال : نعـم ، فالتلفـزيون في زامبيـا يصر على أن أُجـرب حظي أولاً

بمثل هذه الطريقة إذ عسى أن أصبح معلقاً في المستقبل ..!

ضبطنا أعصابنا بصعوبة ، ثم ضحكنا كثيراً ، فهو يقول " في المستقبل " بينما كنا نحن نحبس كلماتنا و أنفاسنا طوال تلك المباراة لكي لا نؤثر على " سلامة " التسجيل أثناء تعليقه الذي يصلح ليس لمباراة بكرة القدم بل ل " الفرجة " والسخرية و إضحاك الناس .. !

حكاية نسجت في"ايتا وان " ..!

على الرغم من كل ذلك التنوع في الأطعمة التي يقدمها المطعم الكبير الخاص بالقرية الصحفية في سيؤل إلا أننا اتفقنا على أن نأكل فقط في ذلك المطعم الذي يديره رجل عربي، قيل إنه كان يعمل طياراً في بلده قبل أن يتحول إلى صاحب مطعم في تلك المنطقة التي يسمونها "ايتا وان".

والسبب هنا واضح ومفهوم، فالعرب يبحثون دائماً عن أكلاتهم العربية أينما ذهبوا وخصوصاً في بلدان الشرق والجنوب الآسيوي والتي تهتم بأطعمة غريبة جداً، بالنسبة لنا طبعاً نحن العرب.

المهم أننا اتفقنا على أن يتولى كل واحد منا مهمة إحضار الطعام من ذلك المطعم وفق جدول يومي محدد.

وفي اليوم المحدد لي خرجت مع زميل لي وركبنا "المترو" المتجه صوب منطقة "ايتا وان".. وفي الطريق حدثت زميلي بشكل عابر عن زميل ثالث أعتاد كل يوم أن يغسل ملابسه الداخلية ويعلقها داخل الحمام الصغير في الشقة المخصصة لنا.

وبشيء من المزاح قُلت إن ملابسه الداخلية الملونة بدأت تزعجنا فعلاً، ضحك صاحبي ضحكة طويلة ثم قال بشيء من الخبث هل أزعجكم فعلاً..؟

قُلت : بالتأكيد ..

قال : وهي ملونة، أي ليست بيضاء اللون .. ؟

قُلت : أجل، ملونة ..

قال : اترك الأمر لي ..

لم أعلق بشيء ، فالأمر ليس أكثر من مزحة ، لذلك فقد نسيت الموضوع تماماً .

وفي المساء ، وعندما اجتمعنا كلنا حول طاولة العشاء في الشقة المقابلة المخصصة لزملائنا الآخرين، بدأ صاحبي حديثه الذي فاجأني أنا أيضاً..

قال : أتدرون، أن علم النفس الحديث قد توصل إلى إستنتاجات مذهلة في قراءة العقول والأفكار وفي اقتحام بواطن النفوس ..

لم يجب أحد منا ، لكننا جميعاً وأنا منهم، انتبهنا بشيء من الانشداد إلى تلك المعلومة التي بدت وكأنها المفتاح لموضوع متشعب وطويل في علم النفس والباراسيكولوجي ..

قال : لا تستغربوا، فعلم النفس علم متطور ، بل هو يتطور كل يوم لأن هناك ما هو جديد دائماً ، والاكتشافات التي تخص هذا الجانب تكاد تصيب الناس بالذهول في كل مكان ..

لا أخفيكم أن الحديث بدأ يشدنا جميعاً، فليس من أحد لا يتمنى أن يطلع أو يستمع لشيء يتعلق بمثل هذا الموضوع الذي ينطوي على تفاصيل في غاية الغرابة والدهشة..

قال : أن علماء النفس يجزمون اليوم على أن ما كان يسمى "سحراً" إنما هو اليوم من بين أهم السبل التي يمكن اعتمادها في الكشف عن الجريمة مثلاً أو في فضح المؤامرات المحتملة لإسقاط هذا النظام أو ذاك أو في توقع ما يمكن أن يحدث ، وقد لا تصدقون عندما أقول لكم إن أحد " الضالعين " في هذا التخصص يستطيع أن يتوقع بالدقة والتفاصيل ما يمكن أن تنتهي إليه أية مباراة بكرة القدم أو ما

يمكن أن ينتهي إليه أي سباق للفروسية أو أن يعرف أيضاً الرقم الذي يمكن أن يفوز بجائزة اليانصيب ..!

ووسط دهشتنا من كل هذا الذي يقوله وانشدادنا لحديثه راح صاحبنا يتوسع في الشرح ويزيد في طرح الأمثلة التي تثير الانتباه فعلاً ثم ركز كثيراً على تصرفات الإنسان وعاداته التي تفضح ، دون أن يدري ، الكثير من أسراره الخاصة .

وقال: تصوروا أن بإمكان الرجل أن يكتشف خيانة زوجته من حركات أصابع القدمين ، وأن صاحب المصنع لم يعد بحاجة إلى جهاز مراقبة داخل مصنعه لأنه لا يحتاج أصلاً إلى أكثر من أن ينتبه إلى إبهام يده اليسرى لأنه هو الذي يمكن أن يدله إلى الموقع الذي يثير الشكوك داخل المصنع ..!

و أيضاً ، فإن ملابس الإنسان تكشف عن بواطنه ، فهناك مثلاً من يحرص على أن يرتدي ملابس بألوان غامقة وهذا أمر يدل على ميوله التسلطية وآخر يرتدي ملابس يغلب عليها اللون الأحمر وذلك يدل على العجز الجنسي وثالث يرتدي ملابس داخلية ملونة وهذا يدل على الشذوذ الجنسي ... و ...

وعند هذه الملاحظة اكتشفت المقلب الذكي الذي شد

انتباهنا جميعاً .. حبست ضحكتي وانسحبت بهدوء إلى غرفة مجاورة لأضحك من كل قلبي وأنا أحسد صاحبي على قدرته الفائقة التي جعلته ينسج كل ذلك وهو يتحدث بكل جد دون أن يبتسم حتى أو يتلكأ في طرح معلومات ليست في الحقيقة إلا من صنع الخيال ..!

ومن يومها اختفت الملابس الداخلية الملونة لزميلنا الآخر، بل حرص في اليوم التالي مباشرة على شراء نصف درزن من ملابس

بديلة ولكن بلون أبيض دون أن نراها معلقة في الحمام هي الأخرى لأنه على ما يبدو كان يخشى أن يكون لهذا اللون أيضاً معناه الذي ربما يجعلها هذه المرة فضيحة بـ "جلاجل"..!

في الطريق إلى المكسيك ...

الدنمارك - هولندا - بنما

حضرنا زفاف رجل على " آخر " في كوبنهاغن..!

هذه أطول رحلة أقطعها بين دولة وأخرى ، فقد كان علي أن أمر بكوبنهاغن في الدنمارك أولاً ومنها إلى امستردام في هولندا قبل أن أعبر المحيط إلى أميركا ومن هناك إلى حيث الحلم في المكسيك .

وعندما أقول الحلم فذلك لأنني أتخيل هذا البلد بالصورة التي كررتها الأفلام الأمريكية وتكررها باستمرار .

أتخيل المكسيك و كأنها أرض الكاوبوي أو العصابات التي تعبر حدود أميركا لتستقر هناك هرباً من ملاحقة القانون أو مطاردة عصابات أخرى غيرها.. هكذا كنا نتصور المكسيك دائماً أو هكذا صوروها لنا مذ كنا صغاراً بحيث بتنا نعتقد أن الرجل هناك ليس أكثر من شاربين مفتولين وقبعة دائرية فوق الرأس وحزام في الخصر يتدلى منه مسدس أو ربما اثنان ..!

أما لماذا هي الرحلة الأطول فذلك لأنها استغرقت نحو أسبوع قبل أن أصل إلى مكسيكو رغم أنني كنت أنتقل بالطائرة وليس على ظهر جمل..!

فعندما وصلت إلى كوبنهاغن كان علي أن أمضي فيها ليلة ويومين بانتظار الطائرة التي ستقلني إلى امستردام ، وهناك في كوبنهاغن وجدت ما يستحق المشاهدة فعلاً ، فقد شاءت الصدف أن أواجه مع صاحبي في إحدى الطرقات موكب عرس غريب جداً .. كان العروسان يُحملان على مقعدين مثبتين على حمالات خاصة تستقر فوق أكتاف أربعة رجال ، والموكب كان محاطاً بالمدعوين من الرجال والنساء ويتجه سيراً نحو أحد الفنادق الكبيرة هناك ..

كان أحد العروسين يرتدي بدلة سوداء مع ربطة عنق حمراء وإلى جانبه عروسته بفستانها الأبيض والطرحة البيضاء مع باقة ورد تحملها في يدها مثلما تفعل أية عروس أخرى في ليلة عرسها ..

أما المفاجأة فقد كانت مذهلة حقاً، فقد اتضح أن صاحبة البدلة البيضاء تلك وهي تحمل على رأسها "الطرحة" ليست امرأة وإنما رجل، نعم رجلاً..!

في البداية ظننت أن صاحبي يمزح عندما أشار لي بذلك غير أنني تأكدت من ذلك فعلاً عندما اقتربت كثيراً من الموكب لأرى تحت " الطرحة " رجلاً وليس امرأة.. ومع أن الشكل والملامح واضحة كل الوضوح إلا أنني كنت مصراً على التأكد من هذا الأمر أكثر وأكثر.. تابعنا الموكب، وصرنا بين المدعوين الذين كانوا في غاية الانشراح، وعندما وصلنا إلى الفندق اخترنا أن نسأل رجل الاستقبال.. ضحك الرجل كثيراً ثم سألنا باللغة العربية : عرب.. ؟

أجبنا : وحضرتك عربي أيضاً..؟

قال : عربي مهاجر من لبنان وأحمل الجنسية الدنماركية .

ورحنا نتجاذب الحديث وكان في غاية الشوق للتحدث مع أي عربي ، وعدت لأسأله عن موكب العرس ذاك فقال : نعم، إنه زواج بين رجلين ، فصاحب البدلة البيضاء تلك رجل مثله مثل العريس الذي يرتدي ربطة العنق الحمراء ، ومثل هذا الزواج المثلي يحدث في هذا البلد وبلدان أوروبية أخرى وترعاه وتدعمه إحدى المؤسسات التي تدافع عن قيم ومعتقدات نراها في الشرق في غاية الغرابة بل والسقوط الأخلاقي أيضاً..!

المهم أن العروسين كانا ينهمكان طوال " الزفة " تلك بالتهامس

بينهما والابتسامة لا تفارقهما بينما بدا الآخرون من ضيوف الحفل وهم في غاية السعادة ، ولله في خلقه شؤون .. !

ثلاث ليال في مطار امستردام ..!

غادرنا كوبنهاغن مساء اليوم التالي ، وعندما وصلنا إلى امستردام كان يجب أن نأخذ الطائرة المتجهة إلى المكسيك مروراً بأميركا والتي ستقلع بعد نحو ساعتين، وعند طاولة الترانزيت في المطار اتضح أن من غير الممكن الصعود إلى تلك الطائرة لأن جوازاتنا لا تحمل سمة الدخول إلى أميركا .

هكذا قالت موظفة الخطوط في المطار والتي رفضت بشكل قاطع السماح لنا بدخول الطائرة تلك رغم كل ما قلناه عن عدم الحاجة إلى سمة الدخول لأننا سنمضي (٤٥) دقيقة فقط في نيويورك دون النزول من الطائرة .

وفي الواقع فإن الحق كان مع الموظفة تلك حيث أخرجت لنا كتيباً صغيراً فيه إشارة بعدم السماح لحاملي خمس جنسيات بالمرور في أجواء أميركا ، مجرد المرور ، دون الحصول على سمة دخول وكنا نحن بالطبع من بين حملة الجنسيات الخمس تلك..!

كان اليوم هو يوم جمعة والوقت مساء ، بمعنى أن غداً وبعد غد عطلة نهاية الأسبوع، ثم عرفنا أن بعد عطلة نهاية الأسبوع تلك سيكون هناك يوم عطلة آخر لمناسبة دينية أو شيء من هذا القبيل ، وهذا يعني أن أحداً من العاملين في سفارتنا هناك لن يتمكن من مساعدتنا في شيء ما دامت السفارات كلها معطلة .. أما المشكلة الأهم فهي عدم قدرتنا على دخول امستردام أيضاً لاننا لم نحصل على سمة دخول خاصة بها أيضاً ، وعبثاً حاولنا وحاولنا ولكن دون جدوى ، أما النتيجة فهي البقاء في صالة الترانزيت تلك لثلاثة أيام بانتظار نهاية العطلة وبعدها يحلها الحلال ..

ثلاثة أيام بلياليها أمضيناها هناك داخل تلك الصالة التي ليس فيها سوى مقاعد للجلوس ، ثلاثة أيام ونحن ننام ليلاً فوق الكراسي تلك لنصحو في الصباح ونمضي النهار في التجوال بين الصالات التي يسمح لنا بالدخول إليها فقط لنعود بعدها ونرمي بأجسادنا المتعبة فوق الكراسي تلك وهكذا إلى أن حل اليوم الثالث حيث أُبلغنا بأنه قد تم تغيير تذاكرنا بحيث نطير إلى بنما بدلاً من أميركا ومنها إلى المكسيك .

وفي مساء ذلك اليوم توجهنا إلى الطائرة التي ستقلع بعد قليل إلى بنما ، وبينما كانت الطائرة تهم بالإقلاع إذْ بكابتن الطائرة يبلغنا أنه قد تقرر تأجيل الرحلة لبضع ساعات لأن الأمطار كانت غزيرة جداً والرياح شديدة .. تصوروا كيف يمكن أن يكون رد فعلنا ونحن لم نصدق أننا ركبنا الطائرة لنعود ونغادرها من جديد لندخل صالة الترانزيت ذاتها التي كرهناها تماماً..

وبصبر أيوب عدنا لنصبر من جديد بانتظار الفرج الذي حل أخيراً مع انبلاج صباح اليوم التالي حيث عدنا للطائرة لتقلع إلى بنما ..

ونحن في الطريق إلى بنما فوجئنا بالطائرة وهي تستعد للهبوط في مطار دولة لم نسمع بها من قبل ويسمونها " عروبة " أو " أوروبة " وهي ليست أكثر من جزيرة في المحيط الأطلسي .. أما سبب الهبوط الاضطراري ذاك فلم نفهمه حتى الآن ، المهم فقد هبطت الطائرة ونزلنا إلى صالة صغيرة ليست أكثر من جدران أربعة مغطاة بسقيفة من " الجينكو " ويسمونها المطار.. مكثنا هناك نحو ثلاث ساعات قبل أن نعود لنستأنف رحلتنا إلى بنما التي وصلنا إليها بعد يأس حقيقي

على أمل أن نعود بعد عشر ساعات لنكمل رحلتنا إلى مكسيكو ..

وفي مطار بنما أبلغونا بإمكانية الدخول إلى المدينة ، غير أن صاحبي همس في أذني ليقول: كلا الأفضل أن نبقى هنا في المطار لأنني سمعت الكثير عن المصاعب والمشاكل التي تواجه الأجانب هنا ..!

ضحكت بسخرية وقلت بداخلي : وأين ستنتهي بنا رحلة العذاب هذه..؟!

أمضينا الساعات العشر تلك في المطار أيضاً ، ثم حان موعد الإقلاع إلى المكسيك ولكن بطائرة أخرى صغيرة الحجم هذه المرة .. وتوكلنا على الله ، وأقلعت الطائرة ، وما إن مرت دقائق حتى بدأت الطائرة ترتج بفعل الجيوب الهوائية التي بدت وكأنها قد راحت لتتقاذف طائرتنا الصغيرة تلك يميناً وشمالاً، صعوداً و هبوطاً، ومعها ترتفع وتهبط نبضات قلوب جميع الراكبين فيها، وأنا أولهم حيث رحت أرى وكأن القدر لا يريد لي أن أرى المكسيك بعد كل هذا الذي صادفنا في الرحلة العجيبة هذه..!

وهكذا فقد يئست ، ووجدت نفسي في أعلى درجات الإحباط خصوصاً وأنني صرت على قناعة أن طائرة مثل هذه لا يمكن أن تصل بنا إلى المكسيك أبداً..!

وبين مصدق ومكذب جاء صوت كابتن الطائرة ليس ليطلب ربط الأحزمة لأن الأحزمة تلك ظلت مربوطة أصلاً طوال الطريق، بل ليعلن أخيراً أننا سنهبط بعد قليل في مطار (مكسيكو ستي).. وهبطنا بعد أن كانت قلوبنا قد بدت وكأنها قد غادرتنا تماماً في تلك الساعات الثلاث الأخيرة من رحلتنا تلك والتي مرت مثل كابوس حقيقي..!

هنا مركز الزلزال الذي ضرب مكسيكو ..

ها هي (مكسيكو ستي) إذاً، الصورة غير الصورة والناس غير الناس والطرقات غير الطرقات، كل شيء يختلف كلياً عما في الأذهان، إنها مدينة واسعة وكبيرة وجميلة أيضاً وفيها الكثير من البنايات الشاهقة التي بنيت بأحدث طراز وبأجمل هيأة ..

صحيح أنها مدينة مزدحمة جداً ، إلا أنها مدينة حديثة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، أما الناس هنا فهم طيبون جداً، أنهم يتعاملون مع الأجنبي بغاية اللطف، فهم شعب رائع يتمتع بسمات رائعة ويسعد كثيراً بصداقة الآخرين..

ولأن علينا أن نغادر مكسيكو بعد ساعات قليلة لنتوجه إلى " تالوكا " المدينة الأعلى في العالم ، أو هي سقف العالم مثلما يقولون ، فقد كان لا بد من أن نستثمر تلك الساعات إلى أقصاها لأنفذ أمراً كان يجول في خاطري منذ عرفت أنني سأتوجه إلى المكسيك ..

والأمر هذا يتعلق بزيارة مركز الزلزال الذي كان قد ضرب مكسيكو قبل نحو ستة أشهر فقط من الآن ..

طلبت من سائق التاكسي أن يتوجه بنا إلى حيث المكان الأكثر تضرراً بالزلزال قبل التوجه إلى تالوكا..

فعل الرجل ، وقطع بنا عدة طرق وسط ذلك الزحام الشديد في مدينة بدت ملوثة فعلاً بأبخرة المصانع والمحروقات ودخان محركات السيارات القديمة التي تملأ شوارعها ..

وعند شارع فسيح بدا وكأنه أحد أهم شوارع المدينة توقف سائق التاكسي ليقول هذا هو مركز الزلزال الذي ضرب مكسيكو ، وفي

الحقيقة كان هناك أشبه بشق مخيف في الأرض عند أحد جانبي ذلك الشارع.. وعلى الرغم من ضيق الشق ذاك إلا أنه يبدو عميقاً، أما البنايات العالية والجميلة والحديثة الموازية لذلك الشق فقد بدت مهجورة تماماً لأنها قد تصدعت بفعل الزلزال ذاك فأصبحت معرضة للانهيار في أية لحظة، على العكس من البنايات التي تواجهها في الجانب الثاني من ذلك الشارع حيث أن الحياة فيها تبدو طبيعية جداً.. جلسنا في أحد المطاعم هناك لنرى بأن الزلزال لم يترك أي أثر فيها رغم أنه كان على بعد أمتار قليلة منها خلافاً لما حدث في الجانب الآخر... أما لماذا حدث ذلك وكيف ، فهذا يحتاج إلى تفسير علمي من رجل مختص..

أقول، كانت صورة مؤلمة جداً ، فهنا مات العديدون بفعل الزلزال الذي امتدت تأثيراته إلى البيوت القديمة والمتهرئة الجاثمة خلف البنايات الشاهقة تلك وسط المدينة .

أما الأغرب فهو أن تمتد تأثيرات ذلك الزلزال إلى مدينة تالوكا التي تبعد أكثر من مائة كيلو متر عن مكسيكو بينما لم تتأثر بنايات لا يفصلها عن مركز الزلزال سوى أمتار قليلة فقط..!

كنـــدا ...

شلالات نياغارا كادت تبتلعنا..!

كنت متلهفاً جداً لتلك الرحلة المشوقة والمثيرة ، فقد أُبلغنا أن الحافلة ستنطلق من مقر إقامتنا في الفندق وسط مدينة تورنتو الكندية عند الساعة الواحدة ظهراً لتنقلنا إلى مدينة نياغارا فولز في الجزء الجنوبي الشرقي من ولاية اونتاريو.

وفي الحقيقة كنت قد سمعت كثيراً عن تلك الشلالات العملاقة التي يقال إنها من بين أضخم الشلالات في العالم.. إنها واحدة من أهم معالم كندا، لا بل إن أحدهم قال لي هناك إذا لم تشاهد شلالات نياغارا فلا تقل أبداً إنك زرت كندا.. وربما كان ذلك قد زاد كثيراً من فضولي ورغبتي الجامحة في زيارة هذا الموقع الطبيعي الاستثنائي الذي يترجم عمليا شكلاً من أشكال القوة الخارقة والجبارة، بل والمخيفة أيضاً، للطبيعة التي صنعها الخالق القدير..

كانت الساعة تشير إلى الواحدة بالضبط وأنا أقف عند باب غرفة صاحبي أستعجله للحاق بالحافلة ، وفي الواقع فإنه كان قد تسبب في تأخرنا فعلاً ولكن لخمس دقائق فقط ، غير أن الدقائق الخمس تلك كانت كافية لأن تجعلنا نقف في حيرة من أمرنا لأن الحافلة كانت قد غادرت الفندق بمن فيها دون أن تنتظر أحداً ممن لا يحترمون دقة المواعيد من أمثالنا نحن العرب..!

تأثرت كثيراً ، ورحت ألوم صاحبي و أصب جام غضبي عليه لأنه هو الذي تسبب في تأخرنا ، غير أنه وجد حلاً منطقياً عندما أشار إلى إمكانية اللجوء إلى سيارة أجرة يمكن أن تلحق بالحافلة التي لا بد وأنها لم تبتعد كثيراً بعد..

وهكذا كان ، فقد انطلقنا بسيارة التاكسي تلك وعيوننا على الطريق نبحث عن الحافلة في وقت كان السائق فيه يبدو حريصاً جداً على أن يطمئننا بين حين وآخر وهو يقول " لا تقلقوا سنلحق بها "..

قطعنا نحو ساعتين دون أن نلحق بالحافلة ، بل وأصبحنا على مقربة من مدينة (نياغارا) وليس من أثر للحافلة على الرغم من أن سائق التاكسي كان قد تجاوز أكثر من مرة السرعة المقررة في ذلك الطريق المراقب بالرادار..

دخلنا المدينة ، ومررنا قريباً من ذلك الجسر العملاق الذي يربط الضفة اليسرى التي نحن فيها لنهر نياغارا وبالضفة الأخرى المواجهة لها داخل الحدود الأمريكية ، والتي تسمى "نياغارا فولز الامريكية"، ثم صرنا في مواجهة منظر مخيف، بل ومرعب جداً، إنها الشلالات التي بدت من بعيد وكأنها الطوفان العظيم بعينه..!

طلبنا من السائق أن يتجه إلى المكان الذي تتوقف عنده عادة حافلات السياح الأجانب إذ عسى أن نجد مجموعتنا هناك .. وأخذنا إلى هناك قريباً من المراسي الخاصة بالمراكب النهرية في مواجهة الشلالات تماماً ، لم نجد أثراً للحافلة ولا لأي شخص من مجموعتنا ، وبينما نحن نتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم هناك توقفت حافلتنا بالصدفة أمام ذلك المطعم حيث كانت قد وصلت إلى المدينة تواً، أي بعد وصولنا بنحو نصف ساعة ..

ومن خلال سائق الحافلة تلك والمرشد الخاص بالمجموعة عرفنا أن سائق التاكسي الذي كان يحرص على أن " يطمئننا " طوال الرحلة لم يكن سوى " نصاباً " ، فقد أخذنا إلى طريق آخر لكي لا يلحق بالحافلة وبالتالي يفوز بالأجرة الكاملة إلى مدينة (نياغارا فولز) ، وكان له ما أراد ..!

المهم، وبعد الغداء مباشرة توجهنا سيراً على الأقدام إلى الشارع المحاذي للنهر.. كانت الشلالات تبعد عنا نحو ألف متر، ومع ذلك فإن

رذاذ المياه المتساقطة من الشلالات كانت تمطرنا، والصوت الهادر للمياه المتلاطمة يكاد يصم الآذان.. !

لم أشأ أن أجازف في أول الأمر، ففي الحقيقة إن منظر المركب وهو يقترب من مساقط المياه الهابطة من تلك القمة التي تبدو وكأنها قريبة من السماء هو منظر مخيف جداً لا سيما وأن المركب ذاك يظهر للناظر وكأنه يتراقص هناك بفعل الموجات المائية الحادة والقاسية التي تضربه من كل جانب ..

ووسط إلحاح صاحبي واستفزازه لي بالإشارة إلى أن حتى العجائز كن يصعدن إلى المركب بقلوب تبدو جامدة ، وجدت نفسي مثل الآخرين، أرتدي المعطف المطري المخصص لكل من يصعد إلى المركب كوسيلة للحفاظ على ملابسه من مياه الشلال أو رذاذه المتطاير ..

وهكذا صرنا فوق المركب لينطلق بنا في رحلة شعرت حينها وكأنها رحلة الموت ، كنت أمسك بأحد أعمدة المركب وكأنه أملي الوحيد في الحياة.. فالرعب يأكلني وقلبي يكاد يخرج من بين ضلوعي وأنا ألوم نفسي على هذه الورطة وأعتب كثيراً على صاحبي الذي كان يضحك بطريقة لم تكن لتخفي أبداً حقيقة مشاعره التي تنطوي في أعماقها على خوف دفين لا يقل أبداً عن خوفي ورهبتي ورعبي ..

كان المركب يسير ببطء نحو الشلال، كنت أحسه وكأنه في موكب جنازة ، وكلما يقترب من مساقط المياه تزداد ضربات القلب ويزداد تمسكي بتلك الأسطوانة الحديدية عند حافة المركب الجانبية .. أردت أن أصرخ بالقبطان أن يعود ، أردت أن أقول له كفى ، أتوسل إليك كفى ولكن، كيف لي ذلك وحتى العجائز كن في غاية المرح والسعادة و " الانشراح " وكأنهن في وادٍ وأنا الوحيد أو ربما صاحبي الصامت أيضاً في وادٍ آخر..!

ووسط كل مشاعر الخوف هذه كان هناك قبالتي شاب لم يجد غير اللحظات هذه والموقف هذا لكي يذهب مع صاحبته في قبلة رومانسية بدت وكأنها تتحدى الموت.. أما الذي زاد خوفي فهو ما كنت أسمعه من أحدهم وكان يقف إلى جانبي وهو يتحدث إلى صاحبه بصوت مسموع ليقول له : ماذا نفعل لو انقلب المركب ، وصاحبه يجيبه : " ينقلب "، نعم هذا ممكن فقد حدث ذلك من قبل..!

سمعت ذلك فقط ولم أسمع غيره لأنني في الواقع لم أكن مستعداً لسماع غيره، بل لم أعد أسمع شيئاً غير هدير الماء الصاخب الذي يرعبني ليبدد آخر ما بقي عندي من خيوط الشجاعة رغم أنني أعترف هنا بأن الشجاعة تلك كانت قد نزعتني أو أنا الذي نزعتها حال دخولي المركب هذا عند المرفأ قريباً من الشاطئ ..

استسلمت تماماً ، ووجدت أن لا مفر من أن أتلقى ثمن طيشي وتهوري منذ وافقت على القبول بمثل هذه المجازفة التي هي الآن أقرب إلى الورطة..

كان المركب يتلاطم مثلما تتلاطم أمواج المياه كلما اقترب من مساقط الشلالات .. أصبح الماء قريباً منا ، لا بل إن معاطفنا المصنوعة من النايلون صارت تلمع بعد أن غسلها رذاذ المياه المتساقطة تلك ، والمصيبة أنه كلما اقترب المركب من مساقط المياه ارتفعت صيحات بعضهم (مور، مور) أي أكثر، أكثر وكأنه يريد الانتحار، ليس لوحده وإنما مع الاخرين ..!

وعند حدود معينة ، لا أدري بالضبط إن كنت قد لمحت فيها حبالاً مثبتة بطوافات ربما تعني خط النهاية ، استدار المركب ليبدأ رحلة العودة التي كانت بالنسبة لي ومنذ لحظات فقط وكأنها الحلم ..

أنجزنا المهمة، هكذا قال صاحبي ولكن، أية مهمة؟ أتراها هي التي

حـدثـني عنهــا ذلك الرجل عـنـدمــا قــال " إذا لم تذهب إلى شــلالات نياغارا لا تقل أبداً إنك زرت كندا " ..؟!

ثم مـاذا عـسـاها تضـيف لنـا مـثل هذه المجـازفـة الخـطـيـرة التـي لا أراها إلا صبيانية..؟!

أليس مـن الأجـمـل والأجـدى أن نـطل على كل هـذا الذي نشـاهـده ونحن في مأمن و أعصابنا هادئة ..؟!

هل هي ضـرورة حـقاً أن نـضع أنفـسنا في مـثل هذا المطب الذي لم ولن أنساه أبداً ما حييت ..؟!

ربما نعم وربما لا، فلولا كل هذا الذي حدث لما كنت، مـثلاً، أحدثكم الآن عن كندا.. ففي الواقع كـانت الرحلة مرعبة لكنهـا مثيرة ومخـيفة، رحلة تنطوي على ذكرى فيـها الكثير مما يسعد النفس ليس لبهـجتها، والعيـاذ بالله، وإنما لأنها انـتهت بسلام لنعـود بعدها إلى تـلـك الحافلة التي أقلتنا إلى حـيث الـعـودة إلـى تورنتــو ونحن نسـتـمع إلـى المرافق السيـاحي وهـو يقـول: أعتـقد إنها كـانت رحلة ممتعة ومـثيرة، فـقد كنا تحت نعل الفـرس (Horseshoe Falls) أجل هكذا قال، وفـي الحقـيقة لم يكن لـيـقـصـد الاهـانة أبداً لأننـا كنا فـعــلاً تحت نعل الـفـرس، وهي التسـمية الشعـبية لذلك الشلال الـعظيم الذي يشبه في تقوسـه حدوة الحـصان ، لكنهـا حـدوة عمـلاقة يبلغ ارتفـاعـها (١٦٢) قـدماً وعـرض ذروتهـا (٢٦٠٠) قـدم ، وهـو المعـدل الذي يمـكن أن يتـسـبب في جـرف مـدينة بأكملها وليس مجـرد مـركب صغير ، والله ستر ..!

إيطاليا ...

فينيسيا... ولينيانو...

... وفتاة من بلاد الأنس!

لينيانو سابيادورا ، مدينة فاتنة تستلقي بغنج على سواحل الأدرياتيك في أقصى الشمال الإيطالي عند الحدود مع النمسا .

كنا قد قطعنا الطريق إليها جواً من روما إلى فينيسيا، مدينة الماء والعجائب ، لنكمل رحلتنا من هناك بالقطار الذي ينطلق منها بين ساعة وأخرى لينقل أفواجاً لا تنتهي من السياح الأجانب الذين جاءوا من كل صوب ليعيشوا أجمل أيام الصيف في مدينة اجمع الكثيرون على أنها من أجمل المدن السياحية في العالم .

وقبل أن نتحدث عن لينيانو دعونا نتوقف قليلاً عند فينيسيا أو مدينة البندقية .. وفينيسيا ، كما تعرفون، مدينة عائمة تطفو فوق الماء ، بناياتها وطرقها ومعابدها كلها فوق الماء ، فهنا أحد أكبر الكنائس الأرمينية في العالم ، وهنا أيضاً منتديات ومحلات تجارية وبيوت تسكنها آلاف العائلات، وبين بناية وبناية أو شارع وآخر جسر صغير أو معبر ، وعند البوابات هنا تصطف مراكب نهرية صغيرة هي واسطة النقل الوحيدة .. أما أفواج السياح الأجانب فقد اعتادت اللجوء إلى مراكب متوسطة الحجم تنقلهم من وإلى قلب المدينة وأطرافها ، وأجمل ما فيها مواكب الأعراس التي تشارك فيها العديد من المراكب يتوسطها مركب خاص يحمل العروسين. وعند أطراف فينيسيا مطار يستقبل يومياً عشرات الطائرات وأيضاً محطة للقطار تزدحم بحركة القاطرات فيها باستمرار .. فينيسيا جميلة جداً ورائعة كل الروعة غير أن مشكلتها تكمن في الغلاء الفاحش فيها ، فهي تشفط ما في الجيوب شفطاً وذلك هو الثمن الذي تفرضه هذه المدينة على زائريها القادمين من كل مكان في العالم ..

أما لينيانو التي تبعد نحو مئة كيلو متر عن فينيسيا فإنها تحفة رائعة تمتلك " بلاجاً " أقرب ما يكون إلى لوحة رسمت بريشة فنان

ماهر ، وفنادقها في غاية الجمال، رغم أنها غير مترفة، حيث تنطوي على كل ما يجعل المرء يشعر و كأنه يعيش في سعادة حقيقة ، وربما تكون حدائقها هي الأجمل، بينما يسود الهدوء شوارعها رغم زحمة السياح فيها خلال أيام الصيف ، والسبب في ذلك ندرة السيارات فيها ، فالواسطة الأكثر شيوعاً للتنقل فيها هي الدراجات الهوائية ذات العجلات الأربع و التي تستوعب راكبين اثنين لا أكثر .

أما مطاعمها فهي سياحية أصلاً ولا تقدم ، في أغلب الأحيان سوى " السباغيتي " و " البيتزا " و " المكرونة " .. والشراب الأساسي فيها هو "كوكتيل" من عصير الفاكهة وهو لوحده يمثل وجبة غذائية دسمة تغنيك عن أي طعام ..

البلاج هو أجمل ما في هذه المدينة بالتأكيد ، فليست المياه فقط هي التي تتلاطم عند حدوده وإنما الأجساد أيضاً التي تزدحم في الماء وخارجه لتبدو للناظر وكأنها صورة من صور الخيال .

كنت حريصاً يومياً على أن أنهض في وقت مبكر من الصباح لأخرج ببذلتي الرياضية وأبدأ بـ " الهرولة " في شوارع لينيانو ، وقد اعتدت أن أفتح بوابة الفندق بنفسي لأن رجل الاستقبال غالباً ما يكون نائماً عند طاولته في الساعات المبكرة تلك .. وفي صبيحة ذلك اليوم لمحت خارج الفندق فتاة تجلس عند سلالمه الخارجية وإلى جوارها حقيبة صغيرة وكأنها تنتظر من يفتح لها بوابة الفندق تلك ..

فتحت البوابة واستقبلتني بابتسامة صباحية امتزجت فيها الكثير من المعاني ، وفي الحقيقة فإن " المعاني " تلك كانت من إبداعات خيالي لأن الفتاة كانت تبدو وكأنها في غاية التعب والإرهاق وفي أشد الحاجة إلى شيء من الراحة بعد الرحلة التي قطعتها في الطريق براً إلى لينيانو ..

كان واضحاً أنها سائحة جديدة ستحل ضيفة في فندقنا ذاك، سألتني عن رجل الاستقبال فأشرت لها نحو غرفته فشكرتني وتناولت حقيبتها ودخلت ثم التفتت إلى الخلف وكأنها ترمقني بابتسامة أخرى عرفت أنها من نوع خاص هذه المرة..!

خرجت وبدأت برنامجي الرياضي الصباحي المعتاد ورحت منهمكاً بالركض في تلك الشوارع الهادئة أسابق نفسي حيناً وأتباطأ بحثاً عن الراحة حيناً آخر إلى أن عدت إلى الفندق بعد نحو ساعة كاملة ..

وكما جرت العادة دخلت الحمام ثم عدت لأستلقي في الفراش من جديد لأنهض بعد نحو ساعة أو أكثر بقليل حيث موعد الإفطار في مطعم الفندق، وفي المطعم لمحت الفتاة نفسها وهي تتوسط إحدى الطاولات برفقة شابين ضحكا معها عند رؤيتي .. !

ربما يكون ذلك هو الذي استوقفني حيث بادرت بالتحية

فوجدتها ترد بأفضل منها، وكان ذلك هو المفتاح...

اتفقت معها على أن نلتقي مساء لنتناول العشاء معاً ، وافقت وكان اللقاء .. الفتاة من مدينة الليل والجمال، من فيينا مدينة الأنس والحب والإبداع ..

تحدثنا طويلاً ووجدتها تعرف لينيانو بأدق التفاصيل لأنها تعودت أن تزورها سنوياً مثلما تعودت أن تسكن في هذا الفندق دون غيره ..

سألتها عن سبب ضحكتها مع زملائها لدى رؤيتي في المطعم عند الإفطار فأجابت : ليسوا زملائي ، لا أعرفهم ، جلسوا معي فحسب وعرفت أن أحدهم مدرب لفريق رياضي يشارك في بطولة تقام هنا، وقد طلب مني ضاحكاً أن ابتعد عن لاعبي فريقه لأنهم منشغلون بالبطولة تلك، وعندما دخلت أنت، والكلام لها، سألته إن كنت أنت

أحـدهم فأجـابني كلا يمـكنك أن تفعلي مـعـه ما تشـائين، وتلك هي كل الحكاية..

ضـحكتُ، وضحـكت هي أيضـاً وكـانت إشـارة في منـتـهى الوضـوح تدعـوني لأن أكـون أكـثـر جـرأة لكي لا يضـيع منا الـوقت في تلك الأيام المحدودة أصلاً والتي سنمضيها معاً في لينيانو..

أمضينا سهرة جـميلة في النادي الليلي الخاص بتلك المدينة، وفي مسـاء اليـوم التـالي كنت على مـوعـد مـعـهـا في بهـو الفندق.. تأخـرتُ بعض الشـيء فـاتصلت بهـا هـاتفـيـاً ولكن دون رد فـعـدت لأنـتظر من جديد ثم كررت الاتصال وليس من جواب ..

أدركت أنني قـد خـدعت ، أو هكذا تصـورت ، فامـرأة مـثل هذه لا بد وأن تكون لعوباً خصوصاً وأنها في منـتـجع سياحي يجعلها مرغوبة من قبل الجمـيع بحكم مـا تمتلكه من جـمال فـتـان ورشاقـة تـأسـر العقـول والقلوب معاً إضافة إلى خفة دمها ..

أصابني الـيأس فعـلاً، ووجدت نفـسي غير مـحظوظ أبداً في تلك الليلة التي رسمت لها الكثير.. ثم لعنت الصدفة التي جمعتني بها منذ البـداية لأنهـا تـركتني هكذا أعـيش هواجس مـا كـان لهـا أن تكون لولا اللقاء الأول ذاك..

وأيضاً فقد شتمـتها في سري كثيراً ووصفتهـا بـأسوأ الصفات لأنها تخلت عني بمثل هذه السرعـة لتمضي يومهـا الـثاني مع رجل آخر ربما كانت قد تعرفت عليه تواً ..!

قررت أن أعـود إلى غرفتي وكـأنني أعاقب نفسي لأنني سـمحت لمثل هذه الفـتـاة أن تلعب بي بهـذه الطريقة الصبيـانية إذ جعلتني شخـصاً

هامشياً في تلك الأمسية بحيث يمكن أن تعود إليه إذا ما تخلى عنها رجل الليلة الثانية لها في لينيانو..!

وفي تلك اللحظات تمنيت لو أن تتصل هاتفياً، لأنني قررت أن أشتمها علناً هذه المرة أو أن أطردها إذا ما أتت إلي لكي أكون أنا من يرفضها وليست هي..

كل هذه الهواجس كانت تنتابني في لحظات من الغضب أحسست فيها وكأني قد خسرت في مواجهة كان يمكن أن أكون أنا الفائز فيها ..

وفي صبيحة اليوم التالي ، وأنا عائد من برنامجي الصباحي الرياضي فوجئت برجل الاستقبال وهو يوقفني ليقول "إن الفتاة التي كانت معك أمس الأول نقلت مساء أمس إلى المستشفى على عجل بعد أن تردت حالتها الصحية بشكل سريع.."

غير معقول، ما الذي يقوله هذا الرجل وكيف..؟!

طلبت عنوان المستشفى وتوجهت إلى هناك فوراً لأجد أن الفتاة قد فارقت الحياة ، والسبب وفقاً للتقرير الطبي إجهاد في القلب، حيث اتضح أنها كانت تعاني أصلاً من مشاكل حادة في القلب كانت تخفيها على ما يبدو خلف تلك الابتسامة الرومانسية الشفافة التي لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي أبداً ..!

المحتويات

تابع المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

تابع المحتويات

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقافة والفنون

قسم الدراسات والبحوث

الإصدارات	المؤلف	السنة
١ - البدء من جديد	حصة العوضي	٢٠٠٠
٢ - بداية أخرى	فاطمة الكواري	٢٠٠٠
٣ - أصوات من القصة القصيرة في قطر	د. حسن رشيد	٢٠٠٠
٤ - دنيانا.... مهرجان الأيام والليالي	دلال خليفة	٢٠٠٠
٥ - قالت ستأتي	جاسم صفر	٢٠٠٠
٦ - غنج الأميرة النائمة	فاروق يوسف	٢٠٠١
٧ - وريثة الصحراء	سعاد الكواري	٢٠٠١
٨ - ويخضر غصن الأمل	أحمد الصديقي	٢٠٠١
٩ - بستان الشعر	حمد محسن النعيمي	٢٠٠١
١٠ - رومانوف وجوليت	ترجمة النور عثمان	٢٠٠١
١١ - الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة	د. حسام الخطيب	٢٠٠١
١٢ - الحضن البارد	د. حسن رشيد	٢٠٠١
١٣ - سحابة صيف شتوية	خالد عبيدان	٢٠٠١
١٤ - سيرة الوجع	أمير تاج السر	٢٠٠١
١٥ - وجوه خلف أشرعة الزمن	حصة العوضي	٢٠٠١
١٦ - حافة الموسيقى	غازي الذيبة	٢٠٠١
١٧ - قصص أطفال	د. هيا الكواري	٢٠٠١
١٨ - أوراق نسائية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠١
١٩ - الفريج	إسماعيل ثامر	٢٠٠١
٢٠ - الأعمال الشعرية الكاملة ج١ - ج٢	د. أحمد الدوسري	٢٠٠٢
٢١ - علمني كيف أحبك	معروف رفيق	٢٠٠٢
٢٢ - قصص وحكايات شعبية	خليفة السيد	٢٠٠٢
٢٣ - رحلة أيامي	صدى الحرمان	٢٠٠٢

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقافة والفنون

قسم الدراسات والبحوث

الإصدارات	المؤلف	السنة
٢٤ - جرح وملح	عبد الرحيم الصديقي	٢٠٠٢
٢٥ - خلف كل طلاق حكاية	وداد الكواري	٢٠٠٢
٢٦ - دراسات في الإعلام والثقافة والتربية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٢
٢٧ - النثر العربي القديم	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٢
٢٨ - كأن الأشياء لم تكن	جاسم صفر	٢٠٠٢
٢٩ - نعاس المغني	عبد السلام جاد الله	٢٠٠٢
٣٠ - مدى	د. زكية مال الله	٢٠٠٢
٣١ - قال المعنى	خليل الفزيع	٢٠٠٢
٣٢ - المسرح الألماني المعاصر	د. عوني كرومي	٢٠٠٢
٣٣ - المسرح في بريطانيا	محمد رياض عصمت	٢٠٠٢
٣٤ - إبراهيم ناجي الأعمال الشعرية المختارة	حسن توفيق	٢٠٠٢
٣٥ - مسرح الصورة بين النظرية والتطبيق	د. صلاح القصب	٢٠٠٣
٣٦ - النوافذ السبع	صيته العذبة	٢٠٠٣
٣٧ - الرحيل والميلاد	جمال فايز	٢٠٠٣
٣٨ - أوراق ثقافية	د. كلثم جبر	٢٠٠٣
٣٩ - بدائع الشعر الشعبي القطري	علي الفياض / علي المناعي	٢٠٠٣
٤٠ - شبابيك المدينة	ظافر الهاجري	٢٠٠٣
٤١ - حضارة العصر الحديث	د. شعاع اليوسف	٢٠٠٣
٤٢ - المتراشقون	غانم السليطي	٢٠٠٣
٤٣ - معاناة الداء والعذاب في أشعار السياب	د. حجر أحمد حجر	٢٠٠٣
٤٤ - سحائب الروح	سنان المسلماني	٢٠٠٣
٤٥ - أصوات قطرية في القصة القصيرة	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٣
٤٦ - ذاكرة الإنسان والمكان	خالد البغدادي	٢٠٠٣

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقافة والفنون

قسم الدراسات والبحوث

الإصدارات	المؤلف	السنة
٤٧ - إبراهيم العريض شاعراً	د. عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٣
٤٨ - الصحافة العربية في قطر	إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٤
٤٩ - أم الفواجع	علي ميرزا	٢٠٠٤
٥٠ - صباح الخير أيها الحب	وداد عبد اللطيف الكواري	٢٠٠٤
٥١ - الصحافة العربية في قطر - مترجم إلى الإنجليزية	إبراهيم إسماعيل - ترجمة / النور عثمان	٢٠٠٤
٥٢ - لآلئ قطرية	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٥
٥٣ - الأعمال الشعرية الكاملة	مبارك بن سيف آل ثاني	٢٠٠٥
٥٤ - التفاحة تصرخ.. الخبز يتعرى	دلال خليفة	٢٠٠٥
٥٥ - إدارة التغيير	عبد العزيز العسيري	٢٠٠٥
٥٦ - الشعر الحديث في قطر	د. عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٥
٥٧ - الشرح المختصر في أمثال قطر	خليفة السيد	٢٠٠٥
٥٨ - لؤلؤ الخليج ذاكرة القرن العشرين	خالد زيارة	٢٠٠٥
٥٩ - على رمل الخليج	محمد إبراهيم السادة	٢٠٠٥
٦٠ - إبداعات خليجية	مسابقة القصة القصيرة لدول مجلس التعاون	٢٠٠٥
٦١ - الأدب المقارن وصبوة العالمية	د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٦٢ - مهارات الإرشاد النفسي وتطبيقاته	د. موزه المالكي	٢٠٠٥
٦٣ - تجربة عبد الرحمن منيف في مدن الملح	نوره محمد آل سعد	٢٠٠٥
٦٤ - المعري يعود بصيراً	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٥
٦٥ - وردة الإشراق	حسن توفيق	٢٠٠٥
٦٦ - مجاديفي	حصة العوضي	٢٠٠٥
٦٧ - الأعمال الشعرية الكاملة ج١	د. زكية مال الله	٢٠٠٥
٦٨ - أسباب للانتماء	رانجيت هوسكوتي - ترجمة / ظبية خميس	٢٠٠٥
٦٩ - تباريح النوارس	بشرى ناصر	٢٠٠٥

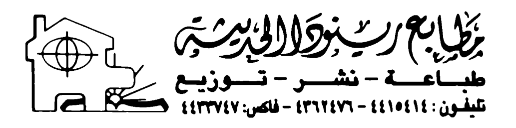
إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

إدارة الثقافة والفنون

قسم الدراسات والبحوث

الإصدارات	المؤلف	السنة
٧٠- المرأة في المسرح الخليجي	د. حسن الرشيد	٢٠٠٥
٧١- أبو حيان... ورقة حب منسية	حمد الرميحي	٢٠٠٥
٧٢- تطور التأليف في علمي العروض والقوافي	د. أنور أبوسويلم - د. مريم النعيمي	٢٠٠٥
٧٣- أحزان كبيرة	أمير تاج السر	٢٠٠٥
٧٤- الديوان الشعبي	عيد بن صلهام الكبيسي	٢٠٠٥
٧٥- ذاكرة الذخيرة	علي بن خميس المهندي	٢٠٠٦
٧٦- تجليات القص في دراسة تطبيقية في القصة القصيرة	باسم عبود	٢٠٠٦
٧٧- سمط الدهر "قراءة في ضوء نظرية النظم"	د. أحمد سعد	٢٠٠٦
٧٨- كان يا ما كان	خولة المناعي	٢٠٠٦
٧٩- الظل والهجير "نصوص مسرحية"	د. حسن رشيد	٢٠٠٦
٨٠- الرواية والتاريخ (الكتاب الأول من سلسلة دراسات ثقافية)	مجموعة مؤلفين	٢٠٠٦
٨١- وجوه متشابهة "قصص قصيرة"	خليفة عبد الله الهزاع	٢٠٠٦
٨٢- المسرح والمدينة	د. يونس لوليدي	٢٠٠٦
٨٣- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	د. زكية مال الله	٢٠٠٦
٨٤- الدفتر الملون الأوراق	حصة العوضي	٢٠٠٦

رقم الإيداع بدارالكتب القطرية : ٥٥٥ / ٢٠٠٦
الرقم الدولي (ردمك) : ٢-٩٧-٥٨-٩٩٩٢١





المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
إدارة الثقافة والفنون
قسم الدراسات والبحوث
الدوحة - قطر 2006